سلسلة التراث السلفي
القسم الأول : مخطوطات
٣

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لشيخ الإسلام
تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية
المتوفي سنة ٧٢٨ هـ

تحقيق
دكتور محمد السيد الجليند
إستاذ الثقافة الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز - جدة
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

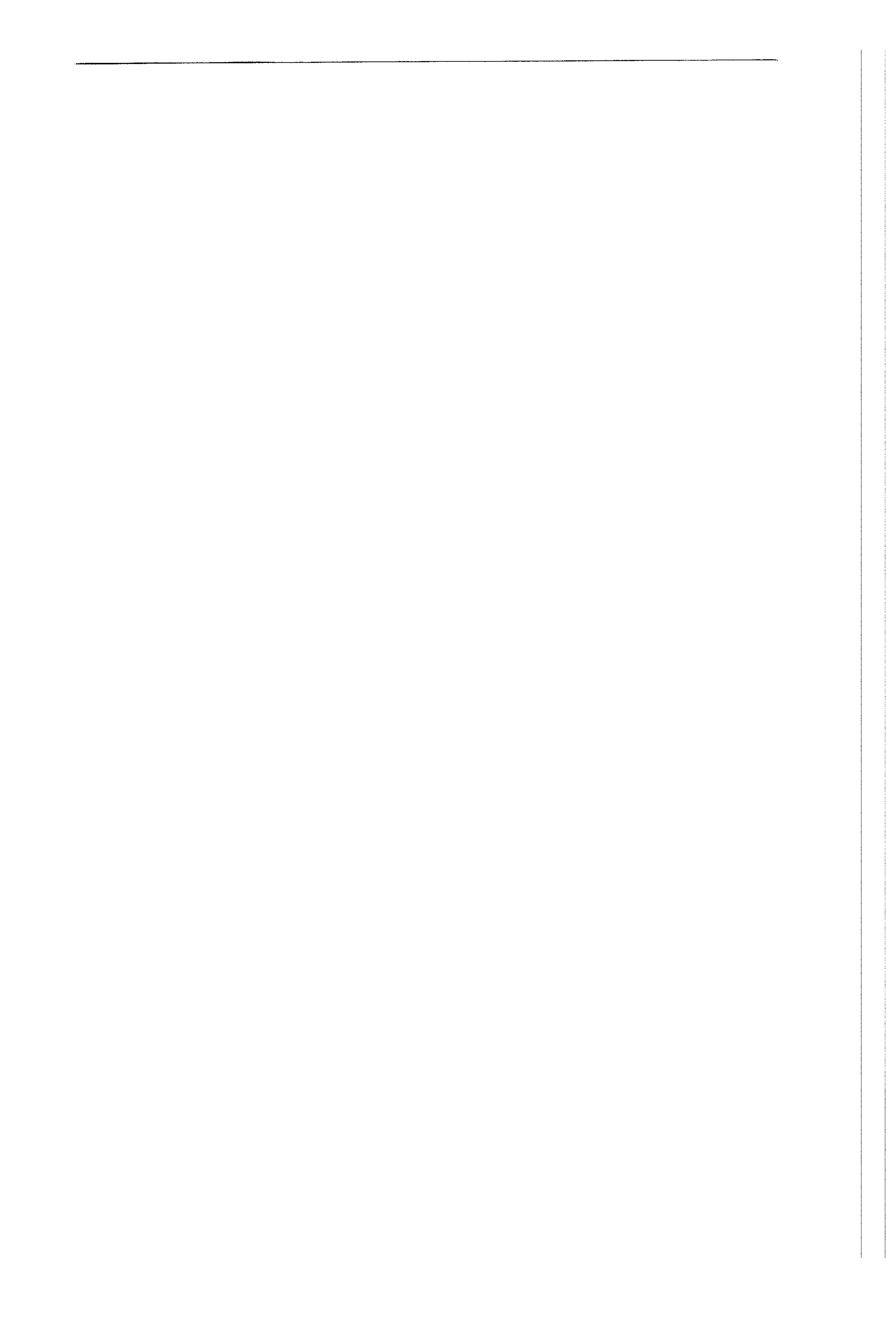
دار المجتمع للنشر والتوزيع
جدة - الخبر
جدة - تليفون ٦٨٩١٤١٧ - ص.ب ٨٠٥٢ - جدة ٢١٤٨٢
الخبر : تليفون ٨٩٤١١٣٦ - ص.ب ١١٧ الثقبة ٣١٩٥٢



طبعـة عام ١٤٠٤ هـ

دار المجتمع للنشر والتوزيع
جـدة ـ الخبـر

بسم الله الرحمن الرحيم



(تقـــديم)

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . إنه من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل الله فلا هادى له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى من دعا بدعوته وعمل بسنته ، آمين .

ان مما أختص الله به الأمة الاسلامية أن جعلها شاهدة يوم القيامة على جميع الأمم قبلها لما تحملته من عبء الدعوة التى تتضمن الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر . وتلك لعمرى مسئولية مهمة ومن ميراث النبوة ذلك ان دعوة جميع الأنبياء فى جوهرها أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . ومن هنا كان علماء هذه الأمة كأنبياء بنى اسرائيل إذا هم قاموا بما يجب عليهم تجاه جمهور الأمة من الأمر والنهى والنصح والارشاد . وكانت كلمتهم تصدر عنهم من واقع احساسهم بالسئولية الملقاة على عاتقهم نحو مجتمعهم حاكمة ومحكومة . وأؤكد هنا على قضية الكلمة والاحساس بأهميتها كأمانة ومسئولية نحو المجتمع كله حاكمة قبل محكومة . فاذا ما نصح العالم عن صدق واخلاص وتقبل الحاكم النصح عن صدق وتواضع واخلاص صلح أمر الرعية كلها . ذلك أن أولى الأمر هم العالم والحاكم فإذا صدق العالم فى نصحه وأخلص الحاكم فى عمله وسهر على تنفيذ أوامر الله ونواهيه فى رعيته أستقام أمر الأمة وصلح حالها . وأمن أفرادها على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم . ولا يستقيم أمر الأمة ولا يصلح حالها إلا بذلك.صلاح العالم والحاكم معًا إذ هما قادة السلم والحرب وأصحاب الرأى والسلطان وعقل الأمة وعضدها ، ولذلك جاءت النصوص الكثيرة التى تحذر المسلمين من فتنة العالم الفاجر والحاكم الظالم وجاءت النصوص

الكثيرة التى توضح مهمة العالم ومسئولية الحاكم وخطر الكلمة الصادرة عن كل منهما وأهميتها فى إصلاح المجتمع أو إفساده ولا أريد أن أستطرد هنا فى بيان أهمية العالم ودوره فى صلاح حال الأمة وكذلك الحاكم . إذ الأمر فى ذلك لا يحتاج إلى مزيد من الايضاح . وانما مادعانى الى هذه الكلمات ما آل اليه أمر الأمة الاسلامية من تخلف وترد وهوان . ونكوص بعض علمائها عن النهوض بواجبهم وتحمل أعباء المسئولية التى حملوها . ومن إستبداد بعض الحكام وظلمهم وطغيانهم وعبثهم بمصير الأمة وتاريخها وعمالتهم المكشوفة لأعدائها . كل هذا واقع يعيشه المسلم المعاصر ويحس بطعم مرارته وقسوة مذاقه صباحا ومساء . وأصبح أمر الاسلام فى معظم أمصاره كما قال الشاعر :

أنى أتجهت الى الاسلام فى بلد تجده كالطير مقصوصا جناحاه

وبات إحساس الفرد بالمجتمع وقضاياه وبالأمة ومصيرها معدوما أو غائبا ومما زاد الأمر خطورة أن الكلمة أصبحت على لسان البعض سلعة تجارية فى أسواق المزايدات السياسية والنفاق الاجتماعى . وأخذت تباع وتشترى شأن أى سلعة استهلاكية تفقد قيمتها بمجرد الحصول عليها . وهذا كان له أثره السىء فى نفسية شباب العصر وتمزقه ونتج عن ذلك فقدان الثقة فى كل ما يقال . وفيمن يقول أحيانا . مما أدى الى حالة اللا مبالاة أو الرفض التى يعيشها بعض الشباب . وهذا فى حد ذاته أخطر ما تصاب به الأمم والشعوب . عزوف أبنائها عن المشاركة فى صنع مستقبلها . وعدم الاحساس بقضايا الأمة .

ولكل أمة بالضرورة ما تأمر به وما تنهى عنه . كما أن لكل فرد ما يأمر به وما ينهى عنه . سواء تم له ذلك فيما بينه وبين نفسه فيأمرها وينهاها أو بينه وبين غيره . ولا يتصور حال الأفراد والجماعات بدون ذلك ولا يستقيم حال امة من الأمم إذا لم يكن لديها ما تأمر به وما تنهى عنه . والله تعالى قد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال سبحانه وتعالى :« يا أيها الذين آمنوا كلو من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله» . وقال لرسله « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا » . وأوجب على هذه الأمة أن تأمر وتنهى بما أمرت الرسل به وما نهت عنه . فقال سبحانه وتعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر » . وجعل مكانة هذه الأمة بين الأمم مرتبطة بقيامها بواجبها فى الأمر والنهى . فقال سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . كما دلت السنة النبوية المطهرة على وجوب تحمل هذه المسئولية . قال ﷺ . من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان . وجاء فى الحديث الصحيح . لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم بذنوبكم فتدعون فلا يستجاب لكم . كما يبين القرآن الكريم أن سقوط بنى إسرائيل وطردهم من رحمة الله كان من أهم أسبابه أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . وانما اصبح المنكر عندهم عرفا والرذيلة عادة . وجاءت قصص الأمم السابقة فى القرآن الكريم لتعتبر بهم الأمة الاسلامية ولتعلم علم اليقين أن سنن الله فى كونه لا تختلف اذا وجدت أسبابها .

ويجب على المسلمين وجوبا كفائيا القيام بهذه المهمة حرصا على سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى فتكت بالأمم السابقة قبله فلا يجوز للأمة أن تهمل أو تتوانى فى القيام بها واذا لم يقم بها أحد أثم الجميع بذلك . وحاق بالأمة ما حاق بالأمم السابقين عليها . واذا كان لكل أمة ما تأمر به وما تنهى عنه فان الله تعالى قد حدد لهذه الأمة الأوامر والنواهى فى كتابه وبينت معالمها السنة النبوية المطهرة . ومن هنا فلا يجوز لأحد أن يأمر أو ينهى بغير ما أمر الله به أو نهى عنه وهذا يقتضى ممن يأمر وينهى أن يكون فقيها عالما بأوامر الله ونواهيه فلا يتخذ عقله أو ذوقه أو هواه مصدرا لأوامره ونواهيه فيضل الناس بغير علم ، ولا يكفى هنا الأمر بما يغلب عليه الظن أنه مما أمرت به الشريعة لأن الظن لا يقوم مقام اليقين فى الأمر وان كان يقوم مقامه فى النهى أخذا بالأحوط والأسلم .

وينبغى أن يتحقق الأمر ان أمره بالشىء ــ وان كان معروفا ــ لن يؤدى الى مفسده أو إحداث فتنة تفرق بين أفراد الأمة وأن نهيه عن الشىء لا يؤدى الى مفسدة أعظم منه لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

وهذا يقتضى معرفة الآمر التامة بالظروف والأحوال التى يجب فيها الأمر والنهى وكيف يقوم بالأمر ومتى ..؟ لأن اختلاف الظروف والأحوال يقتضى اختلاف النظرة

والوسيلة تبعا لتبدل الأحوال . فما يجب الأخذ به فى عصر قد لا يجب فى عصر اخر .

وينبغى أن يعلم هنا أن دفع أعظم الضررين يجوز بإرتكاب أخفها دفعا للضرر الأعظم إذا لم يمكن الأمر إلا بذلك وهذا يقتضى من الآمر أن يكون عارفا بعلل الأحكام ومناط الأمر والنهى (الحكم) . حتى لا يأمر أو ينهى بدون معرفة لسبب الأمر والنهى . وهذه نقطة مهمة ينبغى أن يلتفت إليها الدعاة والمهتمون بأحوال المسلمين . حتى يتعرفوا على موقع أقدامهم من الصواب والخطأ .

وهناك أمور أخرى ينبغى أن يتحلى بها من يتصدى لأمر الناس ونهيهم فبالاضافة إلى تحليه بالفقه والعلم التام بما يأمر به وما ينهى عنه يجب عليه أن يكون صبورا على أذى الناس ، رفيقا بهم ، حليما معهم شجاعا فى الحق ، ولا بد له من ذلك لأن الداعية لا بد أن يتعرض لكثير من ا ذى الناس ، وهذا أمر لا بد له منه وأن يروض نفسه عليه فما من نبى أرسل أو مصلح حمل لواء دعوة أو مذهب إلا تعرض لكثير من الأذى فى المال أو النفس أو الاهل . فما لم يكن له من رداء الصبر لباسا يتحلى به فلن يؤدى الغرض الذى نصب نفسه لأجله وقد يؤدى إلى مفسدة ضررها على المسلمين أكثر من نفعها .

وكذلك ينبغى أن يكون رفيقاً حليماً بالناس عند الأمر والنهى . اذ الرفق والحلم من لوازم دعوة الناس حتى نحصل على الغرض المطلوب من الأمر والنهى . والله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله . وما وجد الرفق فى أمر إلا زانه وما نزع من شىء إلا شانه . وهذا تحقيقا لقوله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . وهذه الأمور الفقه ــ الصبر ــ الحلم ــ الرفق يؤكد شيخ الإسلام على ضرورتها لمن يتصدى لأمر الناس ونهيهم . كذلك الشجاعة فى الحق أمر لا بد منه حتى يؤدى الأمر والنهى هدفه ويحقق غايته . وليست الشجاعة المطلوبة هنا فى قوة الجسم أو شدة العضلات وانما هى شجاعة القلب ورباطة الجأش وذلك مصدره قوة الثقة فى الله واليقين به فكم من رجال أشداء البنية ضعفاء القلوب تجدهم أول الناس فرارا ؟وآخرهم اقداما عند مواطن الرجال . وشجاعة القلب هنا مطلب أساسى للداعيه . لأنها القوة التى تدفعه الى أن يقول

للظالم والطاغية . قف لا تفعل غير هياب ولا متوجس . وهى التى تجعله يقول للقوى والمستبد أعط الضعيف حقه وأتق الله فى عباد الله . وهى التى تجعل الكلمة صادرة منه عن صدق وإخلاص فى النية وليس تزلفا ولا نفاقا ولا متاجرة بها حتى تخرج الكلمة من قلبه لستقر فى قلب المسلم فتقوده إلى حيث أراد له من خير الدنيا والآخرة .

والكتاب الذى أقدمه اليوم للداعية المسلم . واحد من سلسلة التراث السلفى التى بدأنا فى إخراجها منذ عشر سنوات لنبرز فيها معالم وأصول نحن فى أشد الحاجة إليها فى عصرنا هذا خاصة بعد أن أخذت التيارات السياسية العاتية والاجتماعية العابثه والفكرية المنحرفة ، تعبث بعقول الشباب وتزين لهم الحق باطلا والباطل حقا . وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن النكر يعتبر واحدا من الأعمال التى تضع المسلم المعاصر على موطن علته ومكمن مرضه وسبب داء أمته ويصف له نوع الدواء المناسب لهذا الداء والمستأصل لتلك العلة .

وقد عالج هذه القضية كثيرون قبل وبعد ابن تيمية من علماء الكلام والفقهاء والمحدثين . لكن جاء كتاب ابن تيمية مختصر العبارة دالا على المقصود مجسدا لأخطاء الداعية أحيانا ومرشدا الى ما ينبغى أن يتحلى به أحيانا أخرى شارحا الظروف والملابسات التى ينبغى أن يتغير تبعا لموقف الداعية وأسلوبه .

وهذا الكتاب هو الكتاب الثالث من القسم الأول (المخطوطات) فى سلسلة التراث السلفى . حيث ظهر قبله :

١ ــ دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية من أربعة أجزاء ظهر منه (طبعتان) .

٢ ــ كتاب التوحيد واخلاص الوجه والعمل لله . ظهر منه طبعتان وظهر من القسم الثانى (دراسات وبحوث) .

٣ ــ الامام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل .

٤ ــ أسس اليقين عند المدرسة السلفية .

ولقد طبع هذا الكتاب قبل ذلك ضمن مجموعة شزرات البلاتين جمعها المرحوم الشيخ محمد حامد الفقى كما طبعها بالقاهرة أخيرا صاحب المكتبة القيمية وإنا لننوه بالجهد المشكور الذى بذله من اشرف على هاتين الطبعتين وأن يقبل منهما خالص عملهما . بيد أن الحاجة بدت واضحة لتحقيق هذا النص الهام بأسلوب علمى دقيق خاصة أن الطبعات السابقة قد ظهر بها سقط فى بعض المواضع أخل بعبارة ابن تيمية ولقد أشرنا إلى ذلك فى موضعه . كما أن الطبعة الأخيرة له لم يعن بها صاحبها فجاء تخريج الأحاديث مغلقا برموز من المعلق نقلها من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث دون النص على أصحاب السند والصحاح فى مواطنها . وهذا فيه ارهاق لذهن القارىء مما قد يدعوه إلى الملل .

وقد تداركنا كل ذلك فى هذه الطبعة ، وإنا لنشكر هنا الأخ عبد الرحمن صاحب مكتبة دار المجتمع بجدة الذى طلب منا تحقيق هذا النص لإعادة طبعه ، ولقد أبدى اهتمامه المحمود وعنايته بهذا الكتاب نظرا لأهميته وضرورة إنتشاره بين القراء فجزاه الله خير الجزاء . وتقبل منا ومنه صالح أعمالنا وجعلها خالصة لوجهه الكريم و نفع بها الاسلام والمسلمين .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

دكتور
محمد السيد الجليند
جـــده
١٣ شعبان سنة ١٤٠٣ هـ

إبن تيميـة
إمـام وتاريـخ

نشـأته وحيـاته

هو الامام تقى الدين أبو العباس احمد بن عبد الحليم بن الامام مجد الدين ابى البركات عبد السلام بن أبى محمد بن عبد الله بن أبى القاسم محمد بن الخضر بن الخضر ابن على بن عبد الله بن تيميه الحرانى . ولد بحران فى يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ ، الموافق ٢٢ يناير ١٢٦٣ م . هاجر به والده إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الاسلام ٦٦٧ هـ الموافق ١٢٦٨ م .

وفى دمشق استقر المقام به وبأسرته وهو ما زال غلاما يافعا فى باكورة الصبا فلم يكن قد تجاوز السابعة من عمره . نشأ محبا للعلم والعلماء، لا يلوى على شئ غير الاشتغال بالعلم ومجالسة العلماء . وكان والده عالما مقدما فى الحديث وعلومه مما جعل ابن تيميه شغوفا بالاشتغال بالحديث ورجاله ، ولما نزل دمشق ذاع فضله واشتهر أمره وكانت له حلقات للدرس بمسجد دمشق . وتولى مشيخة الحديث بدار السكرية التى كان مقيما بها والتى كانت أولى مدارس العلم التى احتضنت ابن تميمة وهو ما زال فى سن الصبا .[1] .

حفظ القرآن الكريم وهو ما زال فى سن الصبا ثم اتجه إلى تحصيل العلوم فى الحديث والفقه والأصول وعلم الكلام . سمع كثيرا من الفقهاء و المحدثين وقرأ عليهم

---

١ — ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ — ٣٠٨ .

واخذ عنهم وناظرهم جميعا وهو ما زال فى حداثة سنه وكان إذا أراد الذهاب إلى المكتب يعترضه يهودى كان منزله فى طريقه ويسأله عن أشياء لما عرف عن ابن تيمية من الذكاء والنجابة منذ صغره ، فكان ابن تيميه يجيبه عنها سريعا حتى تعجب منه اليهودى وتكررت هذه المسألة من اليهودى بقصد تشكيك الشيخ فيما هو عليه ولكن ذلك لم يزده إلا تمسكا بدينه وعقيدته ولم يلبث اليهودى أن أسلم وحسن إسلامه[1] .

ولقد انبهر بذكائه أهل دمشق لقوة حافظته وسرعة إدراكه . قال عنه الذهبى : كان يحضر المدارس والمحافل فى صغره ويناظر ويفحم الكبار . ويأتى بما يتحير منه أعيان البلد فى العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنه ، وشرع فى الجمع والتأليف من ذلك الوقت[2] .

وأثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها بلغت ثلاث مائة مجلدة [3].

يقول الذهبى فى معجمه : جلس ابن تيمية مكان والده بالجامع الكبير أيام الجمع لتفسير القرآن العظيم . فكان يورد من حفظه فى المجلس نحو كراسين أو أكثر ، وبقى يفسر فى صورة نوح عدة سنين أيام الجمع .

ولقد غاص ابن تيمية فى دقيق من معانى القرآن بطبع سيال ونظر ثاقب وعمد إلى مواطن الاشكال فأزال ما فيها من غَموض ، واستنبط من معانى القرآن أموراً لم يسبق إليها فى ذلك . وبلغ شأوا كبيرا فى حفظ الحديث بأسانيده ، والفقه وأصوله . وبرع فى معرفة المذاهب واختلاف الفقهاء وفتاوى الصحابة والتابعين مع شدة استحضاره لرأى الصحابى أو التابعى وقت إقامة الدليل بشكل يبهر القارئ .

وكان إذا أفتى لم يلتزم بمذهب معين بل يفتى بما يقوم عنده دليله ، فنصر طريقة السلف وانتصر لها من المتكلمين والفلاسفة والصوفية ورد على هؤلاء جميعا ، وبين خطأهم فى كثير من المسائل ، ونصر السنة بأوضح برهان واقوم دليل .

١ ــ الأعلام العلية فى مناقب ابن تيمية للبزار ص ١٨ ــ ١٩ .

٢ ــ العقود الدرية ،ص ٤ .

٣ ــ الذهبى ، تذكرة الحفاظ ٤ ــ ١٤٧٦ ط : حيدر أباد ١٩٥٨ م .

يقول كمال الدين بن الزملكانى :

كان إذا سئل ابن تيمية عن فن من المعلم ظن الرائى والسامع أن الرجل لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحدا لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء إذا جالسوه استفادوا منه فى مذاهبهم ، ولا يعرف أن الرجل ناظر لأحدا فانقطع عنه ، ولا تكلم فى علم من العلوم إلا برع فيه . كان فارغا عن الشهوات الدنيا ، لا لذة له فى غير طلب العلم ونشره والعمل به .

وكان علمه بالحديث ورجاله وعلومه لا يجاريه فيه أحد من أهل زمانه حتى قال فيه معاصروه : كل حديث لم يحفظه ابن تيميه فليس بصحيح . وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث والعالى منه والنازل ، والصحيح والسقيم ، مر حفظه لمتونه وأسانيده ، يقول البزار عنه « أما دواوين الاسلام الكبار كمسند الامام أحمد وصحيح البخارى ومسلم وجامع الترمذى وسنن أبى داود السجستانى والنسائى وابن ماجة والدارقطنى فانه رحمه الله ورضى عنهم وعنه سمع كل واحد منها عدة مرات ..

وقلَّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاءالنسيان . ولم يكن يقف على شئ .. إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه فكان مرجع علماء عصره فى عزو الحديث إلى الكتب الستة والمسند ، يقول عماد الدين الواسطى : كان ابن تيميه أصدق أهل زمانه عقدا وأصحهم علما ، وأعلاهم فى الحق انتصارا له ، وأسخاهم كفا ، واكملهم اتباعا لنبيه محمد ﷺ ، وما رأينا فى عصرنا هذا من تتجلى النبوة المحمدية من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع الحق .

وكانت دمشق فى عصر ابن تيميه مهد العلماء من أمثال النووى وابن دقيق العيد والمزى وابن جماعة ، وكانوا جميعا يتوافرون على دراسة الحديث واسانيدها لبيان الضعيف منها والحسن وغير ذلك من علومه . وكان بجوار مدارس الحديث توجد مدارس الفقه والكلام التى جذبت إليها ابن تميمه وصرف إليها كثيرا من وقته وجهده ناقدا وشارحا مفصلا .

ومن ابرز الحركات التى ظهرت فى عصر ابن تيميه ما كان بين الحنابلة والأشاعرة من منازلات ومناظرات ، فلقد لجأ الحنابلة فى دراستهم للعقائد إلى المنهج الذى سلكوه فى دراسة الفقه والمسائل الفرعية ، فكانوا يستخرجون العقائد من النصوص كما يستخرجون منها الأحكام الشرعية فى مسائل الفقه لأن الدين قد أتى بصريح ما يحتاج إليه الناس فى كلا الأمرين جميعا بينما سلك الأشاعرة وغيرهم فى ذلك مسلك الفلاسفة والمعتزلة حيث كانوا يستدلون على أصول العقائد بالأدلة العقلية والبرهان المنطقى . وثارت دائرة الخلاف بين منهج الأشاعرة والحنابلة فى أصول العقائد مواقف ابن تيميه ومنازلاته . وكانت محنه وأيامه . فلقد أراد الرجل أن يعود بدراسة العقائد الاسلامية إلى مصدرها الأول خالية مما علق بها من فلسفات جدلية وآراء تقليدية فى الوقت الذى انتصرت فيه الدولة لخصوم ابن تيميه من رجال الفقه وعلماء الكلام ، ومن هنا كانت حياة ابن تيمية سلسلة متصلة الحلقات مع الفقهاء والمتكلمين والصوفية ورجال الدوله ، فما كان يخرج من محنة إلا ليزج به فى أتون محنة أخرى . ولقد ذكر ابن كثير فى تاريخه كثيرا مما وقع للشيخ من ذلك[1] .

ولن أحاول الخوض فى تفاصيل ذلك ، فلقد كتب فيه الكثير من الكتب فى ترجمة ابن تيمية وحياته ومناقبه ، ومناظراته ومحنه ، ولكن يعنينى هنا أن أعرض بالحديث لجانبين هامين من حياة ابن تيمية أرى أنهما كانا أكبر عاملين فى توجيه حياته وسببا فى كثير مما حل به .

جهاده .

لقد حرص ابن تيمية على سلامة المجتمع الذى عاش فيه والذى فتح عليه عينيه فوجده صريعا بين اعدائه من الخارج والداخل ، فهناك على حدود البلاد الاسلامية كانت تقف جيوش التتار الذين أخذوا يهددون الدولة الاسلامية وحضارتها بزحفهم المتكرر على البلاد . ولا شك أن ابن تيمية ما زال يتردد فى ذهنه بين الحين والآخر ما حل به وبأسرته من أثر غارات التتار على البلاد ، وما لاقته من مشقة وعناء

---

١ ــ البداية والنهاية ، ج ١٤ حوادث سنة ٧٠٥ ــ ٨٢٨ .

حينما هاجرت أسرته إلى دمشق من جور التتار . وهو لم يكتمل السابعة من عمره . ومن هنا لم يدخر الشيخ جهدا فى محاربة هذا العدو الذى جثم على صدور البلاد . فأخذ يحرض المسلمين على ضرورة محاربته وتطهير البلاد منه [1] وكان أذا حضر عسكر المسلمين فى جهاد يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم إن رأى من بعضهم هلعا إو رقة إو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين [2] .

ويحدثنا التاريخ عن كثير من مواقف ابن تيمية ضد غارات التتار وتحريضه المسلمين على القتال فلقد تقدم الصفوف فى واقعة قشحب سنة ٧٠٢ هـ وأفتى الجنود بضرورة الفطر فى رمضان حتى يقووا على ملاقاة الأعداء وأفطر هو أمامهم ، وكان يبيت لياليه على الأسوار حارسا أمينا على أمن بلاده .

ولما عرف عنه من الشجاعة والجرأة ، كان يقصده الناس عند المهمات ويلجأون إليه عند الشدائد . فعندما هاجم التتار بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ ، وأصبحوا على مشارف دمشق اجتمع الناس بابن تيمية وطلبوا إليه أن يذهب على رأس وفد كسفير لهم لمخاطبة ملك التتار فى الامتناع عن دخول دمشق ، ولما دخل على (قازان) ملك التتار كلمه كلاما أثار دهشة الحاضرين لجرأته وشجاعته ، حتى أن قازان نفسه تعجب منه وتساءل : من يكون هذا الشيخ ؟ إنى لم أرى مثله ولا اثبت قلبا منه . ولا أوقع من حديث فى قلبى . ولا رأيتنى أعظم انقيادا لأحد منه [3] .

ومما قاله لملك التتار فى ذلك : « أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذى عملت ، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت ، وقتلت فما وفيت » وكان فى كلامه هذا خير عظيم حيث أخذعهدا من قازان بعدم دخول البلاد .

---

١ — البداية والنهاية ،جـ ١٤ حوادث سنة ٧٠٥ — ٨٢٨ .

٢ — البزار : ٦٩ .

٣ — أنظر تاريخ ابن الوردى ٢ — ٢٨٧ — البزار : ٧٢ — ٧٣ .

وفى يوم مرج الصفر فى هذه السنة وقد أوشك اليأس أن يتسرب إلى قلوب الناس من أثر التتار ، فلقد ارتفعت الأسعار وكثر العبث فى البلاد وأراد التتار أن يستولوا على قلعة دمشق . فكتب قبجق إلى النائب بالقلعة أن يسلمها لهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور ، ولكن ما أن تسرب الخبر إلى ابن تيمية حتى نهض إلى النائب وكتب إليه « لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمها له إن استطعت) . فنزل أرجواش على أمر ابن تيمية وأرسل إلى قبجق يقول له « لن اسلمه لكم وبها عين تطرف » ، فكانت القلعة بذلك حصنا حصينا للمسلمين من أعدائهم .

وفى سنة ٧٠٠ هـ شاع بين الناس أن التتار على مشارف دمشق لمهاجمتها ، فأخذ الناس يتركون البلاد نهبا للأعداء وطلبا للنجاة من جيوش التتار ، ففزع ابن تيمية ألى سلاطين مصر وحكامها يطلب منهم النصرة ومساعدة البلاد واخذ يهدد سلطان مصر قائلا : « إن كنتم اعرضتم عن البلاد وحمايتها أقمنا لها من يحميها ويستغلها فى زمن الأمن . . . ولو قدر أنكم لستم حكام البلاد ولا ملوكها ثم استنصركم مسلم على عدوه لوجب عليكم النصر ، فكيف وانتم حكام البلاد وهم رعاياكم وانتم مسؤلون عنها [1] .

وأكثر ما يكون ابن تيمية شجاعة عندما تواجهه المصائب والمحن ، ففى سنة ٧٠٧ هـ صدر مرسوم السلطان بحبس ابن تيمية لنيله من الصوفية وكلامه فى شأنهم ، وطلب من القضاة والفقهاء الافتاء فى شأنه بالحبس ، ولكن لم يجد الفقهاء للشريعة مأخذا عند الرجل حتى يفتوا فى أمره بالحبس ، وتحير أمرهم فى ذلك ، ولما وجد ابن تيمية الحيرة بادية على وجوههم تقدم بنفسه إلى الحبس قائلا : « أنا أمضى إلى الحبس بنفسى وأتبع ما فيه مصلحة المسلمين [2] » .

---

١ ـــ البداية والنهاية ١٤ ـــ ١٥ .
٢ ـــ المرجع السابق ١٤ ـــ ١٣٥ وما بعده .

« محاربه للمنكر » .

لم تكن شجاعة ابن تيمية قاصرة على الجانب الوطنى من حياته ، فإن حبه لدينه وتمسكه به قد أخذ عليه تفكيره فأخذ يعمل على تنقيته مما علق به من الشوائب وما دخل فيه من البدع والمنكرات التى استفحل أمرها ، واستشرى خطرها على المجتمع .

ولقد اخذ هذا الجانب من حياته شطرا كبيرا من وقته وجهده وتسبب فى إلحاق كثير من المحن والاتهامات به ، لأنه اعتبر ظهور البدع والمنكرات فى البلاد الاسلامية مرضاً إجتماعياً حرص على سلامة المجتمع منه ، لأن انتشار الخرافات والبدع فى مجتمع ما نذير فنائه ومقدمة انهياره وكسر شوكته فى اعين اعدائه .

وطالما وقف ابن تيمية من مجتمعه موقف الطبيب الماهر بمأتى المرض وكيفية علاجه ، ولكن العلة كانت قد استفحلت والداء قد استشرى ، فالبدع أصبحت عرفا والمنكر أصبح عادة ومن العسير على المصلح تغيير العرف واستئصال العادة بسهولة .

لهذا فقد بدا ابن تيمية فى أعين مجتمعه وكأنه خارج عن العرف متمرد على العادة ، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المحن والابتلاءات ، ومن المواقف الصعبة التى كان سلاحه فيها السنان حينا واللسان أحيانا ، وكانت طبيعة الرجل الشجاعة وراء كل مواقفة فلم يعبأ بذى سلطان فيتملقه ، أو ذى جاه فيواريه ، لأنه كان يملك من الحجج أقواها ومن الأسلحة أحدها .

ومن هنا فقد ناصب العداء لكل ذى بدعة على اختلاف مشاربها ، فتعرض بالنقد والتمحيض لمذاهب الفلاسفة والباطنية والشيعة والصوفية والقرامطة والاسماعيلية وكشف أستار هؤلاء وأولئك ، وانتصر للحق ولدينة منهم جميعا .

ولقد اشتدت عداوة ابن تيمية للمتصوفة والباطنية وحرص على تخليص مجتمعه من خرافاتهم التى ملكوا بها عقول السذج وذلوا بها أعناق العامة من الناس معلنا لهم أنه لا يوجد طريق الى الله غير طريق محمد عليه ﷺ ، وليس هناك من هدى سوى هدى القرآن .

وقد اجتمع به الصوفية فى حضرة السلطان وكلمه ليكف عنهم ويترك أحوالهم ، فقال لهم ابن تيمية . « أنه لا يسع احدا الخروج عن الشريعة بقول ولا بفعل ، وان من أراد أن يدخل النار منهم فليغسل جسده فى الحمام ثم يدلكه بالخل ثم يدخل النار ، ولو دخل النار لا يلتفت إليه ، لأن هذا نوع من الدجل » . ولما أعياهم الحديث معه انصرفوا قائلين للسلطان : نحن لا تتفق أحوالنا إلا عند التتار ولا تتفق أمام الشريعة[1] .

ومع شجاعة ابن تيمية فى الحق فقد كان حليما حيث يكون الحلم عزا يشرف صاحبه ، فقد استحثه السلطان قلاوون على أن يستصدر منه فتوى ليقتل العلماء الذين تكرر منهم الافتاء بحبسه ، وكان الفقهاء والقضاة قد ناصروا اعداء الشيخ عليه ، فأراد السلطان أن يستغل الموقف ويستفتى ابن تيمية فى قتلهم ، ولكن حلم الرج وعفوه قد منعاه من ذلك ، وابت عليه نفسه الشجاعة أن يقتنصها فرصة لقتل العلماء . فقد قال للسلطان : من آذانى فهو فى حل منى . ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه . وأنت إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم ولا مثلهم [2] .

محنته ووفاته :

جرت الطبيعة البشرية على أن كل من علا نجمه واشتهر فضله كثر حساده وكثر الناقمون عليه . وما أكثر حساد ابن تيمية وما أكثر الناقمون عليه فإن لسان الرجل وقلمه لم يجعلا له من صديق ، لأنه لم يدار أحدا ولم يعرف النفاق إلى قلبه سبيلا .

وكان خصوم ابن تيمية فى كثير من المحن هم قضاته من الفقهاء ، الذين كبر عليهم مخالفته لهم فى فتاواهم وآرائهم . وفى أول محنة له عام ٧٥٠هـ جىءبه إلى مصر تنفيذا لمرسوم السلطان بحبسه ، ولما حضر ابن تيمية أمام القضاة والفقهاء حاول أن يدافع عن نفسه فلم يمكنوه ، وادعى عليه ابن مخلوف بأنه يقول :

«أن الله فوق العرش حقيقة ، وأنه يتكلم بحرف وصوت» . فقال له ابن

١ — العقود الدرية ، ص ١٩٥ .

٢ — العقود الدرية ،ص ١٩٥ .

تيمية : من الذى سيقضى فى ؟ فقال ابن مخلوف :أنا .

فقال ابن تيمية : وكيف تقضى فى وأنت خصمى ؟

فغضب ابن مخلوف وأودعه السجن . وكان ذلك فى يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٧٠٥ هـ . وفى ليلة العيد نقل من حبسه إلى مكان آخر بالجب . وظل ابن تيمية العام التالى سنة ٧٠٦ هـ ذهب بعض علماء مصر الى نائب الخليفة (سيف الدين سلار) وتكلموا معه فى إخراج الشيخ عن بعض معتقداته . ثم أرسلوا إليه ليحدثوه فى ذلك ، فامتنع من الحضور أمامهم وتكررت الرسل إليه مرات كثيرة لكى يحضر أمامهم ولكنه لم يلتفت إليهم وانقطع أملهم فى الحضور فانصرفوا من عنده .

وفى يوم الجمعة ١٤من صفر سنة ٧٠٧ هـ ذهب قاضى القضاة ابن جماعة إلى ابن تيمية واجتمع به (فى دار الأوحدى) بالقلعه ، وتحدث معه بشأن خروجه من السجن ، ولكن ابن تيمية رفض الخروج من السجن إلا برفع القيود عنه والرجوع عن الشروط التى اشترطوها معه ، وفى يوم ٢٣ربيع أول سنة ٧٠٧ هـ حضر إليه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بنفسه واجتمع به فى السجن واقسم عليه بالخروج من السجن وهو حر فيما يقول ويعتقد .. ولم يخرج ابن تيمية إلا بعد رفع القيود وإلغاء الشروط التى وضعوها من أجله . وخرج مع الأمير سلار وحضر إليه وفود العلماء والفقها وأمر (سلار) بإقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه .

وفى شوال ٧٠٦ هـ شكى الصوفية منه أمورا إلى الدولة . وادعى ابن عطاء عليه أمورا لم يثبت منها شئ . غير أن الدولة فوضت أمر ابن تيمية إلى الفقهاء ليروا فيه رأيهم حول ما يدعيه الصوفية فبعض الفقهاء قال : ليس على ابن تيمية شئ فيما قال .

ورأى ابن جماعة أن ذلك فيه سوء أدب .

ثم خيرته الدولة بين امور : ان يسير إلى الاسكندرية أو إلى دمشق بشروط . إما أن يودع السجن . ففضل ابن تيمية حياة السجن على البقاء خارجه مكمم الأفواه . ولكن بعض أصفياء الشيخ ألحوا عليه طلبا فى السفر إلى دمشق فأجابهم إلى ما طلبوا تطييبا لخاطرهم .

وفى ٢٨ شوال ركب البريد الى دمشق . ولم يمض عليه إلا ليلة واحدة ، وفى الغد أرسلوا خلفه بريدا آخر فردوه إلى مصر ثانية . فحضر عند ابن جماعة وكان عنده جمع من الفقهاء . فقال بعضهم أن الدولة لا ترضى إلا بحبس ابن تيمية ، وطلب ابن جماعة من القاضى المالكى أن يحكم بحبس الشيخ فامتنع القاضى وقال ما ثبت عندى ضده شىء فكيف أحكم عله بالحبس ؟

فطلب من نور الدين الزواوى (قاضى المالكية) فتوقف القاضى أيضا .

ولما رأى ابن تيمية حيرة العلماء بادية على الوجوه فى شأن حبسه تقدم هو إلى السجن بنفسه قائلا : أنا أمضى إلى السجن بنفسى واتبع ما فيه المصلحة .

فقال القاضى : يجب أن يكون الشيخ فى مكان يصلح لمثله .

فقيل له إن الدولة لا ترضى إلا بمسمى الحبس وارسل الشيخ الى الحبس . وكان كل ذلك بإشارة من نصر الدين المنبجى . وظل الشيخ فى سجنه يستفتيه الناس ويكتب لهم بما يحير العقول من المسائل التى عجز غيره عن الافتاء فيها .

ثم خرج الشيخ من سجنه . وارسل إلى الاسكندرية واقام بها فترة رأى خلالها الكثير من ألوان الاضطهاد والارهاب الفكرى ووشى به الصوفية لدى السلطان وحاولوا اغتياله والتخلص منه . غير أن الله قد قيض له ولغيره من حفظة كتابه من دافع عنه وخلصه منهم . ولكنهم نجحوا فى إيداعه السجن مرة أخرى بالاسكندرية وسجن معه تلامذته والمنتمون إلى فكره وظل الاضطهاد يلاحقه داخل السجن إلى أن تولى السلطان محمد بن قلاوون الحكم فكان أول ما حرص عليه أن يخرج ابن تيمية من سجنه فطلبه من الاسكندرية يوم عيد الفطر عام ٧٠٩ هـ فجاء الشيخ معززا مكرما . ودخل على السلطان فى ٨ شوال . واجتمع به السلطان وحاول أن يصلح بينه وبين الفقهاء الذين أفتوا بسجنه .

وكانت حياة ابن تيمية داخل السجون احب إليه من حياة يجبر المرء فيها على النفاق أو السكوت على الباطل وهذا نموذج من محاكمة الشيخ ومواقف الفقهاء والقضاة منه . واستمرت حياة ابن تيمية على هذا النحو . فما كان يخرج

من السجن إلا ليودع فى غيره ، وما كانت تنتهى محاكمة إلا لتبدأ أخرى ، وكان القضاة والفقهاء يتقربون إلى السلطان بالمسارعة بالحكم على ابن تيمية والافتاء ضده . ولم يضجر ابن تيمية من كل ما نزل به ولم ييأس من نشر دعوته فى تصحيح المفاهيم الاسلامية فى قلوب الناس . وكان يطمئن أصحابه ويقول لهم : ما يصنع أعدائى بى . أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، أينما رحت فهى معى . إن حبسونى فحبسى خلوة ، وإن أخرجونى من بلدى فخروجى سياحه ، وإن قتلونى فقتلى شهادة فى سبيل الله إن فى صدرى كتاب الله وسنة رسوله .

وكان آخر ما وقع للشيخ ما جرى سنة ٧٢٦ هـ بسبب بعض آرائه .

ففى يوم الجمعة ١٠ شعبان سنة ٧٢٦ هـ قرئ بجامع دمشق مرسوم سلطانى يمنع الشيخ من الافتاء واعتقاله . وحضر إليه ابن الخطيرى بدمشق واخبره بأمر السلطان ، فقال ابن تيمية : وأنا كنت منتظرا لذلك . وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة ، ودخل الشيخ إلى باب القلعة معتقلا . وفى يوم الاربعاء منتصف الشهر المذكور أمر قاضى القضاة باعتقال أصحاب ابن تيمية وتلامذته وعزَّر جماعة منهم نودى بهم فى الأسواق والطرقات تشهيرا بهم وتنكيلا فيهم .

وظل ابن تيمية فى سجنه سنتين واشهرا . وقد افتى بحبسه هذه المرة طائفة من أهل الأهواء على رأسهم القاضى المالكى الاخنائى .

وسبب سجنه فى هذه المرة أنه أراد أن يصحح عقائد المسلمين فى مسألة الزيارة وشد الرحال إلى المساجد وقبور الأولياء . فدبر أعداؤه الحيلة فى فتواه وحرفوا كلمه وألفاظه وشنعوا عليه بما لم يقل به . وهذا أمر غير بعيد ولا مستبعد فإن هذه الحيلة هى وسيلة السلطة فى كل عصر ، تتخلص بها ممن تريد من العلماء العاملين الذين لم ينافقوا ولم يركنوا إلى وسلية الرياء أو المداهنة طلبا للنجاة ، مع أن ابن تيمية لم يمنع ،زيارة القبور، ولم يقل ذلك ولم يمنع زيارة قبر الرسول ، وفتواه فى ذلك موجودة لمن أراد أن يصحح فهمه وانما الذى منعه من ذلك هو شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة التى ذكرها الرسول فى حديثه (لا تشد الرحال إلا إلى ثلا ثة مساجد) الخ .

ويملك ابن تيمية من الأدلة على ذلك ما يفحم خصومه ولكن ما كان يرضى هؤلاء إلا حبس الرجل وإسكات لسانه وقلمه .

وفى يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ فى سجنه من الكتب والأوراق والدواة والقلم ، ومنع من الكتب والمطالعه ، وحملت كتبه فى مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة ، وكانت نحو ستين مجلد وأربع عشرة رابطة كراريس ، فنظر إليها الفقهاء وتوزعوها فيما بينهم

ولما منع عن ابن تيمية هذا الزاد الروحى الذى كان انيسه فى سجنه اشتدت به علته ، وازداد به الضيق من المعاملة السيئة . غير أن تلك الحال لم تدم طويلا . إذ فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها وكان ذلك ليلة الاثنين لعشرين من ذى القعده سنة ٨٢٨ هـ ، ومات الرجل فى سجنه كما يقضى عظماء الرجال من أصحاب العقائد الثابتة والايمان الراسخ الذى يجعل من صاحبه غصة فى حلوق أعدائه فلا يتنفسون إلا فى غيبته ، ولا ينعمون بالحياة إلا بعد رحيله .

وقد كانت جنازة الشيخ مثلا واضحا لقول احمد بن حنبل : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم شهود الجنائز .

فقد شهد جنازة ابن تيمية من الخلائق مالا يحصره عد . يقول ابن البرزالى : لقد اجتمع أهل دمشق لجنازة الشيخ اجتماعا لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التى اجتمعوها فى جنازته ، وانتهوا إليها . ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : مع أن الرجل قد مات بالقلعه محبوسا من جهة السلطان وكثير من الفقهاء والصوفية يذكرون عنه للناس أمورا منفرة لأهل الأديان . فهذا كلامهم فيه وهذه جنازته . والفرق كبير بين الحال والمقال .

وهذه الجنائز هى الحد الفاصل بين أهل البدع واهل السنه .

والتاريخ لا يغيب عنه شىء مما يدور فى أيامه ولياليه ، فإن ابن تيمية قد قيل فيه الكثير مما يعاب عليه . كما قيل ويقال على غيره من أصحاب العقائد ، غير أن ذاكرة التاريخ لا تنسى شيئا . فهذا تراث ابن تيمية وهذه آراؤه . مأدبة شهية لمن سلمت منه النوايا وصدقت العزيمة . وما حدث لابن تيمية قد يحدث لغيره ،

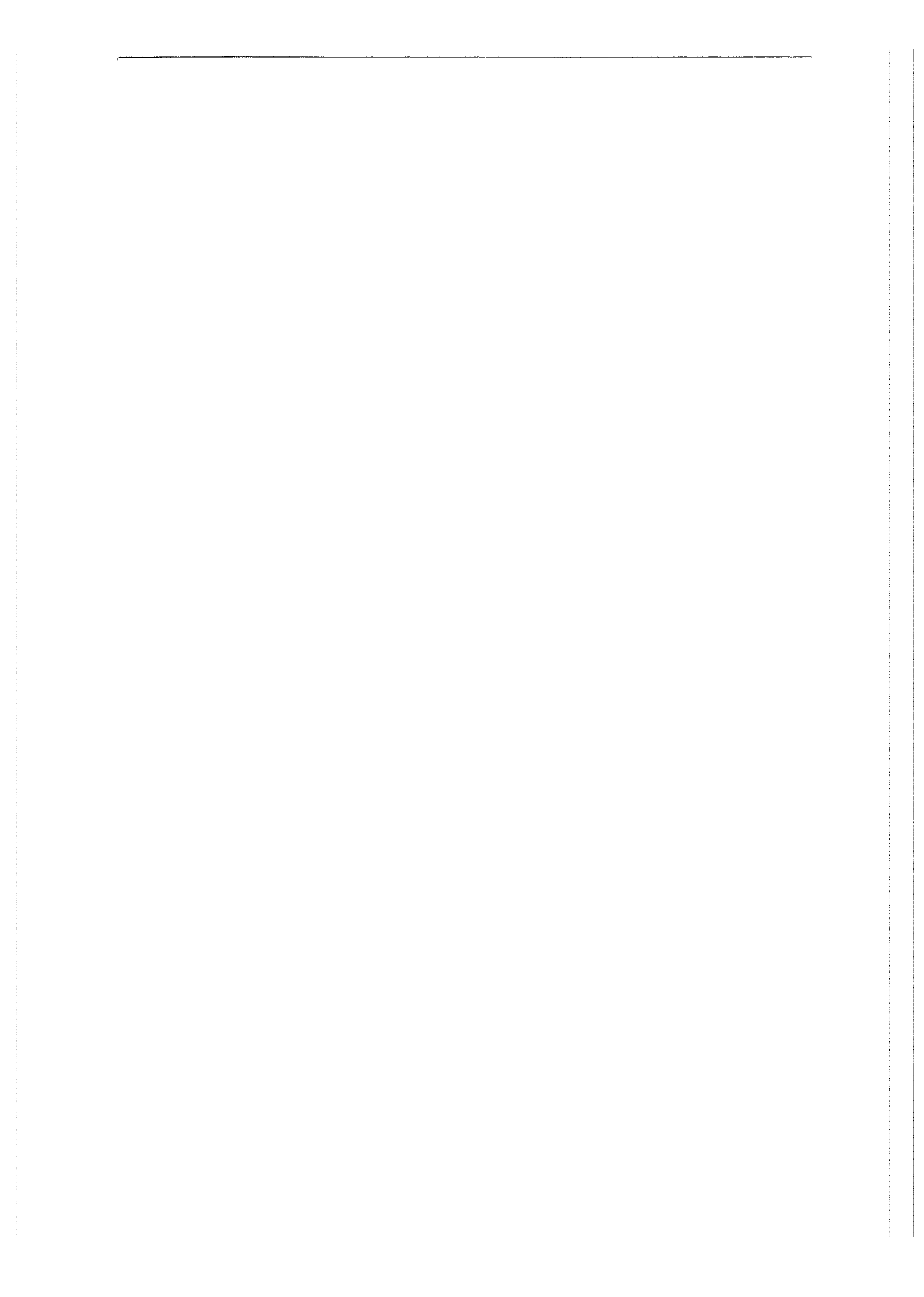
وماشنع به على ابن تيمية قد يشنع به على غيره ، ولكن الزبد سوف يذهب جفاء وإما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ..وهذه سنة الله فى خلقه .

فما جرى بالامس قد يجرى اليوم . وقد يجرى غدا وعلى المرء أن يعى دروس التاريخ .

رحم الله ابن تيمية ، وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير جزاء

د. محمد الجليند





فصل

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الذى أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله . وهو من الدين .

فإن رسالة الله : إما إخبار ، وإما إنشاء . فالإخبار : عن نفسه ، وعن خلقه مثل التوحيد ، والقصص الذى يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهى والإباحة .

وهذا كما ذكر فى الحديث أن(قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)[1] لتضمنها الثلث الذى هو التوحيد . إذ القرآن : قصص ، وتوحيد ، وأمر .

وقوله سبحانه فى صفة نبينا ﷺ : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ويحل لهم الطيبات . ويحرم عليهم الخبائث)[2] هو بيان لكمال رسالته . فإنه ﷺ هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف . ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث .

ولهذا روى عنه ﷺ أنه قال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[3] .

---

١ ـــ ورد الحديث فى : ابو داود (كتاب الوتر .باب فى سورة الصمد) حديث رقم (٣٥٣) ص (١٥٢) ، الترمذى ١١ / ٢٢ ٢٣ (باب ثواب القرآن) ، النسائى ٢ / ١٧٠٠ (كتاب الافتتاح) ،ابن ماجة (كتاب الادب .باب ثواب القرآن) ص (١٢٤٤) حديث رقم (٣٧٨٨) ، الموطأ (كتاب الصلاة) ص (١٦٦) حديث رقم (٣٣٢) .

٢ ـــ سورة الاعراف : ١٥٧ .

٣ ـــ ورد الحديث فى موطأ مالك (٥ / ٢٥١) وفيه (انما بعثت لأتمم حسن الخلق) وفى ابن حنبل٢ / ٣٨١ .

وقال فى الحديث المتفق عليه : (إنما مثلى ومثل الأنبياء : كمثل رجل بنى داراً . فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فكان الناس يطوفون بها ، ويعجبون من حسنها ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة)[1] .

ديننا يتضمن الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر

فبه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهى عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وأما من كان قبله من الرسل : فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال الله تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم)[2] .

وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث ، كما قال تعالى : كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل ، إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه ، من قبل أن تنزل التوراة)[3] .

وتحريم الخبائث : يندرج فى معنى النهى عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات يندرج فى الأمر بالمعروف . لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه . وكذلك الأمر بجميع المعروف ، والنهى عن كل منكر : مما لم يتم إلا لرسول الله الذى تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة فى المعروف . وقد قال الله تعالى :(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا)[4] فقد أكمل الله لنا الدين . وأتم علينا النعمة . ورضى لنا الإسلام دينا .

---

١ — ورد الحديث فى البخارى (كتاب المناقب . باب خاتم النبيين) ٤ / ٢٦١ ،مسلم ١ / ١٧٩ .
٢ — سورة النساء : ١٦٠ .
٣ — سورة آل عمران : ٩٣ .
٤ — سورة المائدة :٢١ .

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها ، حيث قال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف . وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله)[1] ، وقال تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[2].

ولهذا قال أبو هريرة رضى الله عنه : كنتم خير الناس للناس . تأتون بهم فى القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة)[3].

فبين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس . فهم أنفعهم لهم . وأعظمهم إحسانا إليهم . لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدْرْ ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهو عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم . وهذا كمال النفع للخلق .

وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف ، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، بل منهم من لم يجاهد . والذين جاهدوا ــ كبنى إسرائيل ــ فعامة جهادهم : كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، كما يُقَاتَل الصائل الظالم ، لا لدعوة المجاهَدين إلى الهدى والخير . ولأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، كما قال موسى لقومه : (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم . ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى ، إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ــ إلى قوله ــ قالوا : يا موسى ، إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ههنا قاعدون)[4] .

---

١ ــ آل عمران : ١١٠ .
٢ ــ التوبة : ٧١ .
٣ ــ اورده البخارى موقوفاً على ابى هريرة بلفظ (. . . تأتون بهم فى السلاسل فى اعناقهم حتى يدخلوا الجنة) . ٨ ، ٢٢٤
٤ ــ المائدة : ٢١ ــ ٢٤ .

وقال تعالى : (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ إذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا ؟ قالوا : (ومالنا لا نقاتل فى سبيل الله ؟ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)[1] ، فعللوا القتال : بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم . ومع هذا كانوا ناكلين عما أمروا به من ذلك . ولهذا لم تحل لهم الغنائم . ولم يكونوا يطؤون بملك اليمين .

ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا : هم بنوا إسرائيل ، كما جاءنا فى الحديث المتفق على صحته فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ قال : (عرضت على البارحة الأنبياء بأممهم . فجعل النبى يمر ومعه الرجل ، والنبى ومعه الرجلان . والنبى ومعه الرهط . والنبى وليس معه أحد . ورأيت سوادا كثيرا — وفى رواية : فإذا الظراب ممتلئة بالرجال — فقلت : هذه أمتى ؟ فقيل هؤلاء بنو إسرائيل . ولكن أنظر هكذا وهكذا . فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق . قيل : هؤلاء أمتك . ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . فتفرق الناس .ولم يبين لهم . فتذاكر اصحاب النبى ﷺ ، فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ، ولكنا آمنا بالله ورسوله . ولكن هؤلاء أبناؤنا ؟ فبلغ النبى ﷺ . فقال : هم الذين لا يكتوون . ولا يسترقون ولا يتطيرون . وعلى ربهم يتوكلون .فقام عكاشة بن محصن فقال : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقام آخر ، فقال أمنهم أنا ؟ فقال سبقك بها عكاشة)[2] .

ولهذا كان اجماع هذه الأمة حجة . لأن الله تعالى أخبر :أنهم يأمرون بكل معروف . وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم ، أو إسقاط واجب أو تحريم حلال ، أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلال ، أو إخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل : كانوا متصفين بالأمر بالمنكر ، والنهى عن المعروف . والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح . بل الآية تقتضى : أن مالم تأمر

---

١ — البقرة : ٢٤٦ .

٢ — أورده ابن حنبل ١ / ٤٠١ ، ٤٠٣ . ، وفى البخارى ١٠ / ٢١١ .

به الأمة : فليس من المعروف ، ومالم تنه عنه : فليس من المنكر . إذا كانت آمرة بكل معروف ، ناهية عن كل منكر . فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟ .

يجب الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر

والله سبحانه وتعالى — كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر — فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وأولئك هم الفلحون)[1] .

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها ، لم يكن من شرط ذلك : أن يصل أمر الآمر ونهى الناهى منها إلى كل مكلف فى العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة . فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟ بل الشرط : أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم . ثم إذا فرطوا فلم يسعوا فى وصوله إليهم — مع قيام فاعله بما يجب عليه — كان التفريط منهم لا منه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لايجب على كل أحد بعينه . بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك : كان الجهاد أيضاً كذلك . فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه :أثم كل قادر بحسب قدرته . إذا هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته . كما قال النبى ﷺ :(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان) [2] .

---

١ — آل عمران : ١٠٤ .

٢ — ورد الحديث فى البخارى (كتاب العلم) ، مسلم ٢ / ٢١ — ٢٢ (كتاب الايمان) ، ابو داود ٤ / ٥١١ (باب الامر والنهى) حديث رقم ٤٣٤٠ ، ابن ماجة (كتاب الفتن . باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ٣ / ١٣٣١ . حديث رقم (٤٠١٣) ، الترمذى (كتاب الرؤيا) ، النسائى (كتاب الايمان) ، الدرامى (كتاب الرؤيا) ،ابن حنبل ٢ / ٤ .

وإذا كان كذلك ، فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإتمامه بالجهاد : هو من أعظم المعروف الذى أمرنا به . ولهذا قيل : (ليكن أمرك بالمعروف [معروفا][1]، ونهيك عن المنكر غير منكر) .

وإذا كان هذا من أعظم الواجبات أو المستحبات . فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب . والله لايحب الفساد . بل كل ما أمر الله به فهو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعلموا الصالحات . وذم الفساد والمفسدين فى غير موضع .

فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته : لم يكن مما أمر الله به وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم . إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباد الله وليس عليه هداهم .

وهذا من معنى قوله تعالى :(ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم)[2] والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب .

فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — كما قام بغيره من الواجبات — لم يضره ضلال الضال .

وذلك يكون تارة بالقلب . وتارة باللسان . وتارة باليد .

فأما القلب : فيجب بكل حال . إذا لا ضرر فى فعله . من لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبى ﷺ : (وذلك أدنى — أو أضعف الايمان) ، وقال : (ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) وقيل لابن مسعود رضى الله عنه : (من ميت الأحياء ؟ فقال : الذى لايعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا) وهذا هو المفتون الموصوف

---

١ — ما بين المعقوفتين ليس بالأصل .
٢ — المائدة : ١٠٥ .

بأن قلبه (كالكوز مجخياً)[١] فى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما فى الصحيحين (تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير) [٢] ... الحديث) .

الناس فريقان فى الأمر والنهى

وهنا يغلط فريقان من الناس ..

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهى ، تأويلا لهذه آلاية . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته : (أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه آلاية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت النبى ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[٣] .

والفريق الثانى : من يريد أن يأمر وينهى — إما بلسانه ، وإما بيده — مطلقاً من غير فقه ،ولا حلم ولا صبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح ، وما يقدر عليه وما لا يقدر ، كما فى حديث أبى ثعلبة الخشنى سألت عنها — يعنى الآية — رسول الله ﷺ فقال : بل ائتمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر . حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه . ورأيت أمراً لا يدان لك به ، فعليك بنفسك . ودع عنك أمر العوام . فإن من ورائك أياما للصبر . فيهن مثل قبض على الجمر . للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا

---

١ — بمعنى غير المعتدل .

٢ — ورد الحديث فى مسلم (كتاب الايمان .باب رفع الامانة وعرض الفتن على القلوب) ،ابن حنبل ٥ / ٣٨٦ .

٣ — ورد الحديث بتمامه فى تفسير الآية المذكورة فى كل من الطبرى ١١ / ١٣٧ وابن كثير ٢ / ٦٦٧ ،وانظر ابن ماجة (كتاب الفتن . باب قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . .) الآية ص (١٣٣ . وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يظن ذلك بعض الناس . قال الترمذى عن ابى أمية : سألت أبا ثعلبة فقلت له كيف تصنع فى هذه الآية . ؟ فقال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا . سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهو عن المنكر . حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا . ودنيا مؤثرة . واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك . . الحديث .

يعملون مثل عمله)[1] فيأتى بالأمر والنهى معتقدا أنه مطيع لله ولرسوله . وهو معتد فى حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهى ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهى على ذلك . وكان فساده أغظم من صلاحه .

الصبر على جور الأئمة

ولهذا أمر النبى ﷺ (بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة) ، وقال : (أدوا إليهم حقوقهم .وسلوا الله حقوقكم) [2] وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضع .

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة ، وترك قتال الأئمة ، وترك القتال فى الفتنة .

وأما أهل الأهواء ــ كالمعتزلة ــ فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم .

وتجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة (التوحيد) الذى هو سلب الصفات .و (العدل) الذى هو التكذيب بالقدر . و (المنزلة بين المنزلتين) (وانفاذ الوعيد) (والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) الذى فيه قتال الأئمة .وقد تكلمت على قتال الأئمة فى غير هذا الموضع .

---

١ ــ انظر : ابن ماجة ٣ / ١٣٣٠ . (كتاب الفتن . باب قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم) حديث رقم (٤٠١٤) ، الترمذى ١١ / ١٨١ . (ابواب التفسير) ،ابو داود ٤ / ١٥٢ (كتاب الملاحم .باب الأمر والنهى) حديث رقم (٤٣٤١) . وانظر هامش رقم (٣) ص (٧) .

٢ ــ ورد الحديث فى البخارى ٦ / ٦١٢ بلفظ مختلف ، مسلم (٤) حديث رقم (١٨٤٣) ، ابن حنبل ١ / ٤٣٢ ، الترمذى ٤ / ٤٨٢ (كتاب الفتن) حديث رقم (٢١٩٠) .

درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة

وجماع ذلك : داخل فى القاعدة العامة ، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، أو تزاحمت . فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد ، وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى — وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ، ودفع مفسدة — فينظر فى المعارض له . فإن كان الذى يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد : أكثر . لم يكن مأموراً به، بل يكون محرما ،إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته .

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة . فمتى قدر الانسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر . وقلَّ أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوهما جميعاً ، أو يتركوهما جميعاً : لم يجز أن يؤمروا بمعروف ، ولا ينهوا عن منكر ،بل ينظر ، فإن كان المعروف أكثر : أمر به . وإن استلزم ما هو دونه من المنكرولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل ا لله ، والسعى فى زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب :نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه : أمرا بمنكر ، وسعيا فى معصية ا لله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما . ولم ينه عنهما . فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لايصلح لاأمر ولا نهى ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين . وذلك فى الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع[1] : فيؤمر بالمعروف مطلقا ،وينهى عن المنكر مطلقا .

---

١ — سبق الحديث عن المعروف من جهة القدر فى ص (٣) .

وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها . ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمن النهى عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أوفوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ، حتى يتبين له الحق . فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية . وإذا تركها كان عاصياً . فترك الأمر الواجب معصية . وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوة إر بالله .

ومن هذا الباب : ترك النبى ﷺ لعبد ا لله بن أبى ابن سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان .فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول ا لله ﷺ يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناس فى قضية الافك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذى أحسن فيه : حمى له سعد بن عبادة ــ مع حسن إيمانه وصدقه ــ وتعصب لكل منهم قبيلة حتى كادت تكون فتنة[1] .

فصل

الحب والبغض تبع لحب الله وبغضه

وأصل هذا : أن تكون محبة الانسان للمعروف وبغضه للمنكر ، وإرادته لهذا وكراهته لهذا : موافقا لحب ا لله وبغضه ، وإرادته وكراهته الشرعين : وأن يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوته وقدرته . فإن ا لله لا يكلف نفسا إلا وسعها . وقد قال (فاتقوا ا لله ما استطعتم)[2] حازمة ، لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان . وأما فعل البدن : فهو بحسب قدرته .

---

١ ــ ما بين المقوفتين : ليس بالأصل .

٢ ــ سورة التغابن : ١٦ .

ومتى كانت إدارة القلب وكراهته كاملة تامة ، وفعل العبد معها حسب قدرته . فإن يعطى ثواب الفاعل الكامل ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضوع .

فإن من الناس من يكون حبه وبغضة وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها ، لا بحسب محبة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى . فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟)[1] فإن أصل الهوى : هو محبة النفس . ويتبع ذلك بعضها .

ونفس الهوى — وهو الحب والبغض الذى فى نفس — لا يلام العبد عليه . فإن ذلك قد لا يملكه . وإنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى : (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . فأحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[2]وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟[3] وقال النبى ﷺ « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى . وكلمة الحق فى الغضب والرضى . وثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

والحب والبغض يتبعه دوق عند وجود المحبوب و المبغوض ، ووجد وإرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله : فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذإلهه هواه .

واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى المشهيات .

فإن لأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، كما قال الله تعالى : (فإن لم يستجيبوا لك فأعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . والله لا يهدى القوم الظالمين)[4] ، وقال تعالى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم . هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون . بل اتبع الذين

١ — سورة القصص : ٥٠ .
٢ — سورة (ص) : ٢٦ .
٣ — سورة القصص : ٥٠ .
٤ — سورة القصص : ٥٠ .

ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله ؟ وما لهم من ناصرين)[1] ، وقال تعالى : (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإن كثيراً لَيَضِلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين) [2] ، وقال تعالى : (قل : يا أهل الكتاب ، لا تغلوا فى دينكم غير الحق . ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً . وضلوا عن سواء السبيل) [3] ، وقال تعالى ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملهم . قل : إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير)[4] . وقال فى الآيات الأخرى : (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[5] ، وقال تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم . واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) [6] .

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة — من المنسوبين إلى العلماء والعباد — يجعل من أهل الأهواء ، كما كان السلف رحمهم الله يسمونهم « أهل الأهواء » .

وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذى بعث به رسوله ﷺ . ولهذا قال تعالى : فى موضع (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم)[7] وقال فى موضوع آخر : (ومن أضل ممن تبع هواه بغير هدى من الله ؟)[8] .

١ — سورة الروم : ٢٨ — ٢٩ .
٢ — سورة الأنعام : ١١٩ .
٣ — سورة المائة : ٧٧ .
٤ — سورة البقرة : ١٣٠ .
٥ — سورة البقرة : ١٤٥ .
٦ — سورة المائدة : ٤٩ .
٧ — سورة الأنعام : ١١٩ .
٨ — سورة القصص : ٥٠ .

فالواجب على العبد : أن ينظر فى نفس حبه وبغضبه . ومقدار حبه وبغضه : هل هو موافق الأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله ﷺ ، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض . لا يكون متقدماً فيه بين يد الله ورسوله . فإن الله تعالى قد قال : (ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يد الله ورسوله)[1] .

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله : ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورسوله . ومجرد الحب والبغض هوى . لكن المحرم منه : اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال لنبيه داود (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يَضِلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد) [2] .

فأخبر : أن من اتبع هواه .. أضله ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هداه الذى بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه .

وتحقيق ذلك : أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : هو من اوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى : (ليبلوكم : أيكم أحسن عملا ؟)[3].

وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً : ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح : لا بد أن يراد به وجه الله تعالى . فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجه وحده . كما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برئ . وهو كله للذى أشرك » .

---

١ ـــ سورة الحجرات : ١ .

٢ ـــ سورة ص : ٢٦ .

٣ ـــ سورة الملك : ٢ .

وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الإسلام . وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله . وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ولا بد ــ مع ذلك ــ أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما امر الله به ورسوله ، وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة . وهو العمل المشروع المسنون، العمل المشروع المسنون : هو المأمور به أمر إيجاب ، أو إستحباب ، وهو العمل الصالح ، وهو الحسن ، وهو البر ، وهو الخير ، وضده : المعصية ، والعمل الفاسد والسيئة ، والفجور ،والظلم .

ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين : النية ، والحركة . كما قال النبى ﷺ : « أصدق الأسماء حارث ، وهمام »[1] فكل أحد حارث همام : له عمل ونية . لكن النية المحمودة التى يقبلها الله ، ويثيب عليها : هى أن يراد الله وحده بذلك العمل .

والعمل المحمود : هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : « اللهم إجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : يجب أن يكون كذلك ، هذا فى حق الآمر الناهى نفسه .



١ ــ ورد الحديث فى ابى داود ٤ / ٢٨٨ ، الترمذى ٦ / ٢١٨ والحديث برواية ابى وهب الجشمى فى ابى داود . قيل وكانت له صحبة .

فصـــل

شروط الأمر والنهى

١ ــ ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه . كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « مَنْ عَبَدَ الله بغير علم : كان ما يفسد أكثر مما يصلح » كما فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه : « العلم أمام العمل ، والعمل تابعه » وهذا ظاهر . فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلم كان جهلا ، وضلالا ، واتباعاً للهوى ، كما تقدم . وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية ، وأهل الإسلام . فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتميز بينهما . ولا بد من العمل بحال المأمور وحال المنهى .

٢ ــ ومن الصلاح : أن يأتى بالأمر والنهى على الصراط المستقيم . والصراط المستقيم : أقرب الطرق الموصل إلى حصول المقصود .

٣ ــ ولا بد فى ذلك من الرفق كما قال النبى ﷺ : « ما كان الرفق فى شئ إلا زانه . ولا كان العنف فى شيىء إلاّ شانه » [1] وقال ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف » [2]

٤ ــ ولا بد أيضاً أن يكون حليما ، صبوراً على الأذى . فإنه لا بد أن يحصل له أذى . فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه : (وأمُرْ بالمعروف ، وانْهَ عن المنكر . واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور)[3] .

---

١ ــ ورد الحديث فى مسلم حديث رقم (٢٥٩٤) ،ابن ماجة .

٢ ــ ورد الحديث فى البخارى ١٢ / ٢٨٠ من فتح البارى على شرح صحيح البخارى (كتاب الاستتابة) ،مسلم (كتاب السير) ٨ / ٢٢ ابو داود (كتاب الأول) ٥ / ١٥٥ ،الترمذى ٥ / ٦٠ حديث رقم (١٧٠١) ابن ماجة ٢ / ١٢١٦ . (كتاب الأدب . باب فى الرفق) . الدرامى ٢ / ٣٢٣ ابن حنبل ١ / ١١٢ .

٣ ــ سورة لقمان : ١٧ .

ولهذا أمر الله الرسل — وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — بالصبر كقوله لخاتم الرسل ﷺ ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة . فإن أول ما أرسل أنزلت عليه سورة (يأأيها المدثر) بعد أن أنزلت عليه سورة (اقرأ) التى بها نبّئ . فقال الله تعالى : (يأأيها المدثر قُم فأنذر . وربَّك فكبِّر . وثِيابك فطهِّر . والرُّجز فاهْجر . ولا تَمنُن تستكثر . ولربِّك فاصبر)[1] .

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة . وختمها بالأمر بالصبر . ونفس الإنذار أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . فعُلِم أنه يجب بعد ذلك الصبر . وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[2] ، وقال تعالى : (فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا)[3] ، وقال : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)[4] ، وقال : (فاصبر لحكم ربِّك ولا تكن كصاحِبِ الحوت)[5] ، وقال : (واصبر وما صبرُك إلا بالله)[6]وقال : (واصبر فإن الله لا يضيعُ أجر المحسنين)[7] .

فلابد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهى . والرفق معه . والصبر بعده .

وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحباً فى هذه الأحوال .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف — ورووه مرفوعاً — ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به. فقيهاً فيما ينهى عنه. رفيقاً فيما يأمر به . رفيقاً فيما ينهى عنه. حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه» وليعلم — أن الأمر بذه

١ — سورة المدثر : ١ — ٧ .
٢ — سورة الطور : ٤٨ .
٣ — سورة المزمل : ١٠ .
٤ — سورة الأحقاف : ٣٥ .
٥ — سورة القلم : ٤٨ .
٦ — سورة النحل : ١٢٧ .
٧ — سورة هود : ١١٥ .

الخصال فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس . فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه . وذلك مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل . فإن ترك الأمر الواجب معصية ، وفعل ما نهى الله عه فى الأمر معصية . فالمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل ، قد يكون الثانى شراً من الأول . وقد يكون دونه ، وقد يكونا سواء . فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى ، والمعتدى فيه . قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

(فصـل)

المعاصى سبب المصائب : من الأمم . والطاعة سبب النعم .

ومن المعلوم ــ بما أرانا الله من آياته فى الآفاق ، وفى أنفسنا ، وبما شهد به فى كتابه : أن المعاصى سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : من سيئات الأعمال . وأن الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله . قال تعالى : (وما اصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير)[1] ، وقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[2] ، وقال تعالى : (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم)[3] ، وقال تعالى : (أوَ لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم أنَّى هذا ؟ : قل هو من عند أنفسكم)[4] وقال : (أو يُوبِقْهُنَّ بما كسبوا ويعف عن كثير)[5] ، وقال : (وإن تُصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور)[6] ، وقال تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون)[7] .

---

١ ــ سورة الشورى : ٣٠ .
٢ ــ سورة النساء : ٧٩ .
٣ ــ سورة آل عمران : ١٥٥ .
٤ ــ سورة آل عمران : ١٦٥ .
٥ ــ سورة الشورى : ٣٤ .
٦ ــ سورة الشورى : ٤٨ .
٧ ــ سورة الأنفال : ٣٣ .

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم ــ كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون ــ فى الدنيا . وأخبر بما سيعاقبهم به فى الآخرة . ولهذا قال مؤمن آل فرعون : (ياقوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين . مالكم من الله من عاصم . ومن يُضلِل الله فما له من هاد) [1] .

وقال تعالى : (كذلك العذابُ . والعذابُ الآخرة أكبر) [2] ، وقال : (سنُعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذابٍ عظيم) [3] ، وقال : (ولنُذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) [4] ، وقال : (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ــ إلى قوله يوم نبطش البطشة الكبرى . إنا منتقمون) [5] .

ولهذا يذكر الله فى عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات فى الدنيا وما أعده لهم فى الآخرة . وقد يذكر فى السورة وعد الآخرة فقط . إذ عذاب الآخرة أعظم . وثوابها أعظم . وهى دار القرار . وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب فى الدنيا تبعا . كقوله فى قصة يوسف : (وكذلك مكنَّا ليوسف فى الأرض . يتبوَّأ منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) [6] وقال : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) [7] ، وقال : (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلّموا لنبوّأنهم فى الدنيا

---

١ ــ سورة غافر : ٣٠ ــ ٣٣ .
٢ ــ سورة القلم : ٣٣ .
٣ ــ سورة التوبة : ١٠١ .
٤ ــ سورة السجدة : ٢١ .
٥ ــ سورة الدخان : ١٠ ــ ١٦ .
٦ ــ سورة يوسف : ٥٦ ــ ٥٧ .
٧ ــ سورة آل عمران : ١٤٨ .

حسنة . ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)[1] ، وقال عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام : (وآتيناه أجره فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)[2]

وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففى سورة النازعات ، إذ قال :(والنازعات غرقا والناشطات نشطا — ثم قال — يوم تَرجُف الراجفة تتبعها الرادفة) فذكر القيامة مطلقا . ثم قال : (هل أتاك حديث موسى ؟ إذ ناداه ربهُّ بالوادى المقدَّس طوًى . اذهب الى فرعون إنه طغى — إلى قوله — إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلا . فقال : (أأنتم أشد خلقاً ، أم السماء ؟ بناها — إلى قوله — فإذا جاءت الطامة الكبرى — إلى قوله — فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى)[3] الى آخر السورة .

وكذلك فى سورة المزمل ذكر قوله : (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيماً . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً — إلى قوله — كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول . فأخذناه أخذاً وبيلا)[4]

وكذلك فى سورة الحاقة ذكر قصص الأمم — كثمود ، وعاد ، وفرعون — ثم قال تعالى : (فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة)[5] إلى تمام ما ذكر من أمر الجنة والنار .

---

١ — سورة النحل : ٤١ — ٤٢ .
٢ — سورة العنكبوت : ٢٧ .
٣ — سورة النازعات كاملة .
٤ — سورة المزمل : ١١ — ١٦ .
٥ — سورة الحاقة : ١٣ — ٢٧ .

وكذلك فى سورة « ن والقلم » ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به . ثم قال : (كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)[1].

وكذلك فى سورة « التغابن » قال : (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ، فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات . فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا . واستغنى الله . والله غنى حميد) ، ثم قال تعالى : (زعم الذين كفروا : أن لن يبعثوا قل : بلى ، وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير)[2].

وكذلك فى سورة«ق» ذكر حال المخالفين للرسل ، وذكر الوعد والوعيد فى الآخرة .

وكذلك فى سورة «القمر» ذكر هذا وهذا . وكذلك فى آل حم مثل «حم غافر» و «السجدة» و «الزخرف» و «الدخان» وغير ذلك ، إلى غير ذلك مما لا يحصى .

فإن التوحيد والوعد والوعيد من أول ما أنزل ، كما فى صحيح البخارى عن يوسف بن ماهك قال : «إنى عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، إذ جاءها عراق : فقال : أى الكفن خير ؟ قالت : ويحك ، وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين ، أرينى مصحفك . قالت لم ؟ قال : لعلى أؤلف القرآن عليه . فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك أيَّهُ قرأت قبل ؟إنما نزل أول ما نزل منه : سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام . ثم نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنى

١ — سورة القلم : ٣٣ .

٢ — سورة التغابن : ٥ — ٧ .

لجارية حديثة السن ألعب ــ (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)[1] ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . قال : فأخرجتْ له المصحف ، فأملتْ علية آى السورة »[2] .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان ،فقد يذنب الرجل والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهى . فيكون ذلك من ذنوبهم . وينكر عليهم اخرون إنكارا منهيا عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم .فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشر قديما وحديثا . اذ الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع . فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ، وظلم كل من الثانى والثالث وجهلهما من نوع اخر واخر .

اسباب الفتن في إتباع هؤلاء

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك . ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ، ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصاها . ويدخل فى ذلك أسباب الضلال والغى : الأهواء الدينيةوالشهوانية ، والبدع فى الدين ، والفجور فى الدنيا .

وذلك أن أسباب الغى ، التى هى البدع فى الدين والفجور فى الدنيا : مشتركة ، تعم بنى ادم ، لما فيهم من الظلم والجهل .فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره ــ بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو يشرب خمر . أو ظلم فى المال بخيانة أو سرقة ، أو غصب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصى ــ وإن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين ــ فهى مشتهاه فى الطباع أيضا . ومن شأن النفوس : أنها لا تحب اختصاص غيرها بشيء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له . وهذا هو الغبطة التى

---

١ ــ سورة القمر : ٤٦ .

٢ ــ ورد الحديث فى البخارى (كتاب فضائل ال قرآن) .

هى أدنى نوعى الحسد . فهى تريد الاستعلاء على الغير ، والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل . ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها : أن تختص عن غيرها بالشهوات . فكيف اذا رأت الغير قد أستأثر عليها بذلك ،وأختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم فى ذلك : الذى يحب الاشتراك والتساوى . وأما الآخر : فظلوم حسود .

وهذان يقعان فى الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله .

فما كان جنسه مباحا — من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال — إذا وقع فيها الاختصاص : حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

وأصلها الشح . كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال :« إياكم والشح .فإنه أهلك من كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا . وأمرهم بالظلم فظلموا . وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » [1] ، ولهذا قال الله تعالى فى وصف الأنصار (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم) أى من قبل المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أتوا) أى لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم من المهاجرين (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، ثم قال : (ومن يوق شحُ نفسه فأولئك هم الفلحون)[2]

وسمع عبدالرحمن بن عوف وهو يطوف بالبيت يقول :« رب قِنِى شح نفسى . رب قنى شح نفسى » فقيل له فى ذلك . فقال : « إذا وقيت شح نفسى فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة » أو كما قال .

فهذا الشح — الذى هو شدة حرص النفس — يوجب البخل بمنع ما عليه ، والظلم بأخذ مال الغير . ويوجب قطيعة الرحم . ويوجب الحسد . وهو

---

١ — ورد الحديث فى داود ١٣٣/٢ مسلم حديث رقم (٢٥٧٨) ، ابن حنبل ١٩١/٢ . وانظر تفسير ابن كثير ٢٣٩/٤ .

٢ — سورة ال حشر : ٩ .

كراهة ما أختص به الغير وتمنى زواله ، والحسد فيه بخل ، وظلم . فإنه بخل بما أعطيه عن غيره . وظلم بطلب زوال ذلك عنه .

فإذا كان هذا فى جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرمة ، كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ؟ واذا وقع فيها إختصاص ، فإنه يصير فيها نوعان :

أحدهما : بغضها لما في ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع فى الأمور المباحة الجنس .

والثانى : بغضها لما فى ذلك من حق الله .

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام .

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق ، والحسد ونحو ذلك .

والثانى : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررهما .

والثالث :ما يجتمع فيه الأمران . مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس ليزنى بها ويشرب بها الخمر . ومثل أن يزنى بمن يرفعه على الناس بذلك السبب ويضرهم ، كما يقع ممن يحب بعض النساء والصبيان . وقد قال تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[1] .

---

١ ــ سورة الأعراف : ٣٣ .

(فصـل)

(أمور الناس لا تستقيم إلا بالعدل)

وأمور الناس إنما تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى قد يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق ، وإن لم تشترك فى إثم . ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة ، وإن كانت كافرة . ولا يقيم الظالمة ، وإن كانت مسلمة .

ويقال :الدنيا تدوم مع العدل والكفر . ولا تدوم مع الظلم والإسلام .

وقد قال النبى ﷺ : « ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم »[1] ، فالباغى يصرع فى الدنيا ، وإن كان مغفورا له مرحوما فى الآخرة .

وذلك : أن العدل نظام كل شيىء . فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبه فى الآخرة من خلاق . ومتى لم تقم بالعدل لم تقم . وإن كان صاحبها من الاءيمان ما يجزى به فى الآخرة .

فالنفس فيها داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدى عليه فى حقه . وفيها داعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة ـــ كالزنا وأكل الخبائث ـــ فهى قد لا تظلم من لا يظلمها . وتؤثر هذه الشهوات ، وإن لم يفعلها غيرها . فإذا رأت نظراءها قد ظلموا ، أو تناولوا هذه الشهوات : صار داعى هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه ، وزوال الخير عنه ، ما لم يكن فيها قبل ذلك . ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين . وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

١ ـــ ورد الحديث فى الترمذى وقال عنه : حديث صحيح ،ابن ماجة وابن حنبل ٥ / ٣٦ .

أقسام الناس فى الأمر والنهى

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا فى أهواء نفوسهم . فلا يرضون إلا بما يعطونه ، ولا يغضبون إلا لما يحرمونه . فإذا أُعطى أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال أو الحرام : زال غضبه . وحصل رضاه . وصار الأمر الذئ كان عنده منكراً — ينهى عنه ويعاقب عليه ، ويذم صاحبه ، ويغضب عليه — صار فاعلا له ، وشريكا فيه ، ومعاونا عليه ، ومعاديا لم ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب فى بنى آدم . ترى الإنسان يسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله .

وسببه : أن الإنسان ظلوم جهول . فلذلك لا يعدل ، بل ربما كان ظالما فى الحالين . يرى قوماً ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته . واعتداءه عليهم . فيَرضِي أولئك المنكرين ببعض الشيء ، فينقلبون أعوانا له . وأحسن أحوالهم :أن يسكتوا عن الإنكار عليه . وكذلك تراهم على من يشرب الخمر ويزنى ، ويسمع الملاهى ، حتى يدُخلوا أحدهم معهم فى ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك . فتراه حينئذ قد صار عونا لهم .

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التى كانوا عليها . وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون فى ذلك مخلصين لله ،مصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أوذوا .فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم من خير أمة أخرجت للناس .يأمرون بالمعروف . وينهون عن المنكر . ويؤمنون بالله .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا . وهم من غالب المؤمنين .

فمن فيه دين وله شهوة فى قلبه إرادة الطاعة وإرادة المعصية. وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة .

فالأولون : فالأولون هم أهل النفس الأمارة التى تأمر بالسوء .

والوسط : هم أهل النفس المطمئنة التى يقال لها : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فأدخلى في عبادى . وادخلى جنتى)[1] .

وهؤلاء هم أهل النفس اللوامة ، التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه . وتتلون . تارة كذا وتارة كذا .وتخلط عملا صالحاً وآخر سيئاً .

ولهذا لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ـــ وهما اللذان أُمر المسلمون بالاقتداء بهما ـــ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم :«اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر»[2] لما كان الناس أقرب عهداً بالرسالة ، وأعظم إيماناً وصلاحاً ، وأئمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت فى الطمأنينة : لم تقع فتنة . إذ كانوا فى حكم القسم الوسط .

ولما كان فى آخر خلافة عثمان ، وفى خلافة على رضى الله عنهما كثر القسم الثالث . فصار فيهم شهوة وشبهة ، مع الإيمان والدين . قد صار ذلك فى بعض الولاة وبعض الرعايا . ثم كثر ذلك بعد . فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدم ـــ من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين ـــ وكل منهما متأول : أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل. ومع هذا التأويل نوع من الهوى . ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه فى أن يَعْمُرَ قلبه بالإيمان والتقوى ، ولا يزيغه ، ويثبته على الهدى والتقوى ، ولا يتبع الهوى ، كما قال

---

١ ـــ سورة الفجر ٢٧ ـــ ٣٠ .

٢ ـــ ورد الحديث فى : أبو داود ١٣/٥ (كتاب السنة . باب فى لزوم السنة ، النسائى ٥ـــ٤٤ حديث رقم ٢٦٧٦ (كتاب العلم . باب ماجاء فى الأخذ بالسنة) ، ابن ماجة ١٥/١ (المقدمة . باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، الدرامى ٤٤/١ (المقدمة . باب اتباع السنة) ، ابن حنبل ٤ /١٢٦ ـــ ١٢٧ .

تعالى :(فلذلك فادع . واستقم كما أُمرت . ولا تتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأُمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم)[1] .

وهذا أيضاً حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت فى المقالات والعبادات . وهذه الأمور مما تعظم به المحنة على المؤمنين . فإنهم محتاجون إلى شيئين :

إلى دفع الفتنة التى ابتلى بها نظراؤهم — من فتنة الدين والدنيا — عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإن معهم نفوسا وشياطين ، كما مع غيرهم. فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم ، كما هو الواقع . فيبقى الداعى الذى فى نفس الشيطان وشيطانه . ودواعى الخير كذلك ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يرد خيراً ولا شراً ، حتى رأى غيره — لا سيما إن كان نظيره — يفعله ، ففعله . فإن الناس كأسراب القطا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدىء بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه ،كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً »[2] وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة . وأن حكم الشىء حكم نظيره . وشبيه الشيء منجذب إليه .فإذا كان هذان داعيين قويين ، فكيف إذا انظم اليهما داعيان آخران .

---

١ — سورة الشورى : ١٥ .

٢ — ورد الحديث فى : مسلم (كتاب العلم) ٨ /٦١ ، (كتاب الزكاة) ٨٧/٣ ، النسائى ٥ /٧٦ ، ابن حنبل ٤ /٣٥٧ — ٣٥٩ .

أهل المنكر يحبون من يوافقهم

وذلك : أن كثيراً من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ،ويبغضون من لا يوافقهم . وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة : من موالاة كل قوم لموافقيهم ، ومعاداتهم لمخالفهم .وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات : كثيراً ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم فى أمورهم وشهواتهم .إما للمعاونة على ذلك ، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك . وإما لتلذذهم بالموافقة ، كما فى المجتمعين على شرب الخمر — مثلا — فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم . وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسداً له ذلك ، وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ، ويحمده الناس دونهم . وإما لئلا يكون له عليهم حجة . وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لئلا يكونوا تحت مِنَّته وخطره ، ونحو ذلك من الأسباب . قال الله تعالى : (وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم — من بعدم إيمانكم — كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق) [1] ، وقال تعالى فى المنافقين : (ودّوا لو تكفرون كما كفروا . فتكونون سواء) [2] ، وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ودت الزانية لو زنى النساء كلهن » .

والمشاركة : قد يختارونها فى نفس الفجور ، كالاشتراك فى الشرب ، والكذب والاعتقاد الفاسد . وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن يزني غيره ، والسارق الذى يود أن يسرق غيره أيضاً ، لكن فى غير العين التى زنى بها والتى سرقها .

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر فإن شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهى إلى حد الاكراه ،أولا ينتهى إلى حد الإكراه .

---

١ — سورة البقرة : ١٠٩ .
٢ — سورة النساء : ٨٩ .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه . فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم : انتقصوه واستخفوا به ، وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى . وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه .وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود فى المنكر نظيره موجود فى المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال الله تعالى : (والذين آمنوا أشد حبا لله)[1] ، فإن داعى الخير أقوى . فإن الانسان فيه داع يدعوه إلى إ لايمان والعلم ، والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر ، لا سيما إذا كان نظيره . لا سيما مع المنافسة . وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يجب موافقته على ذلك ، ومشاركته له ، من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع .

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات ، كما يقابل الطبيب المرض بضده . فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه . وذلك بشيئين : بفعل الحسنات وترك السيئات ، مع وجود ما ينفى الحسنات ، ويقتضى السيئات . وهذه أربعة أنواع .

ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة ، بحسب قدرته وإمكانه . قال تعالى : (والعصر . إن الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)[2]، روى عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال : « لو فكر الناس كلهم فى سورة العصر لكفتهم » وهو كما قال . فإن الله أخبر فيها : أن جميع الناس خاسرون إلا من كان فى نفسه : مؤمنا صالحا ، ومع غيره : موصيا بالحق ، موصيا بالصبر .

---

١ ــ سورة البقرة : ١٦٥ .

٢ ــ سورة العصر : ١ ــ ٣ .

فصل
وجوب الصبر عند المحنة

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة ، وعظيم الأجر . كما سئل النبي ﷺ : « أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل . يبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلابة : زيد فى بلائه . وإن كان فى دينه رقة : خفف عنه . وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة »[1] وحينئذ فيحتاج من الصبر مالا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سبب الإمامة فى الدين ، كما قال تعالى : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا . وكانوا بآياتنا يوقنون) فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور به ، وعلى ترك السيىء المحظور المنهى عنه .

ويدخل فى ذلك : الصبر على الأذى ، وعلى ما يقال . والصبر على ما يصيبه من المكاره ، والصبر على البَطَر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ، ويتنعم به ، ويتغذى به . وهو اليقين . كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية . فإنه لم يعط أحد — بعد اليقين — خيراً من العافية . فسلوهما الله »[2] .

الإحسان الى الناس يحقق المطلوب

وكذلك إذا أمر غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سيىء: فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحساناً يحصل به مقصودة : من حصول المحبوب ، واندفاع المكروه . فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو .

---

١ — ورد الحديث فى الدارمى ٢٢٨/٢ ، ابن حنبل ١٧٢/١ وفى الترمذى وقال عنه : حسن صحيح .

٢ — أورده ابن حنبل فى مسنده ٥/١ .

لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب ، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً فى الصدقات . وقال تعالى لنبيه ﷺ : (خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين)[1] ، وقال تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)[2] ، فلا بد أن يصبر وأن يرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم . ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهى الإحسان إلى الخلق ،وبينها وبين الصبر تارة .

ولا بد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم ، وإصلاح غيرهم . لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد .

فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بنى آدم . لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهما . ولهذا فإن جميعهم يتمادحون بالشجاعة والكرم ،حتى إن ذلك عامة ما يمدح به الشعراء ممدوحيهم فى شعرهم .وكذلك يتذامون بالبخل والجبن .

والقضايا التى يتفق عليها عقلاء بنى آدم لا تكون إلا حقاً ، كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل ، وذم الكذب والظلم . وقال النبى ﷺ ــ لما سأله الأعراب ، حتى اضطروه إلى سمُرة . فتعلقت بردائه ــ فالتفت إليهم ، وقال : « والذى نفسى بيده ، لو أن عندى عدد هذا العِضاه نعماً لقسمته فيكم . ثم لا تجدونى بخيلا ، ولا جباناً ، ولا كذوباً »[3] لكن يتنوع ذلك بتنوع المقاصد والصفات : فإنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرىءما نوى .

---

١ ــ سورة الأعراف : ١٩٩ .

٢ ــ سورة البلد : ١٧ .

٣ ــ ورد الحديث فى البخارى ١٢ /١١٩ بشرح الكرمانى حديث رقم ٢٦٢٥ (باب الشجاعة فى الحرب) ، النسائى ٦ /٢٦٢ ط المصرية بالازهر (كتاب الهبة) ، ابن حنبل ٢ /١٨٤ ، ٤ /٨٢ ، ٨٤ . وفيه ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا .

ذم البخل والجبن

ولهذا جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ، ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيل الله ، دون ما ليس فى سبيله . فقال النبى ﷺ : « شر ما فى المرء : شح هالع ، وجبن خالع »[1] ، وقال : « من سيدكم يابنى سلمة ؟ فقالوا : الجد بن قيس ، على أنا نزنّه بالبخل : فقال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ » ، وفى رواية : « إن السيد لا يكون بخيلا . بل سيدكم : الأبيض الجعد ، البراء بن معرور » .

وكذلك فى الصحيح قول جابر بن عبدالله لأبى بكر الصديق رضى الله عنهم : « إما أن تعطينى ، وإما أن تبخل عنى فقال : تقول : وإما أن تبخل عنى ؟ وأى داء أدوأ من البخل ؟ »[2] فجعل البخل من أعظم الأمراض .

وفى صحيح مسلم عن سليمان بن ربيعة قال : قال عمر رضى الله عنه : « قسم النبى ﷺ قسما . فقلت : يارسول الله ، والله لغير هؤلاء أحق به منهم . فقال : إنهم خيرونى بين أن يسألونى بالفحش وبين أن يبخّلونى . ولست بباخل »[3] ؛ يقول : إنهم سألونى مسألة لا تصلح . فإن أعطيتهم وإلا قالوا : هو بخيل . فقد خيرونى بين أمرين مكروهين ، لا يتركونى من أحدهما : المسألة الفاحشة ، والتبخيل . والتبخيل أشد . فأدفع الأشد بإعطائهم .

والبخل جنس تحته أنواع : كبائر وغير كبائر . قال تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم . بل هو شر لهم . سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة)[4] وقال : (واعبدوا الله . ولا تشركوا به شيئاً . وبالوالدين

---

١ ـــ ورد الحديث فى : أبو داود ٣/٣٦ حديث رقم ٢٥١١ ط السيد حمص سنة ١٩٦٩ م (كتاب الجهاد . باب فى الجرأة والجبن) . وفى ابن حنبل ٢/٣٠٢ .. والعضاة شجر له شوك .

٢ ـــ ورد الحديث فى البخارى ١٥/٦ ـــ ٦١ من عمدة القارى على شرح صحيح البخارى حديث رقم ٤٤ ط دار احياء التراث العربى ببيروت وفى ابن حنبل ٣ /٣٠٨ .

٣ ـــ ورد الحديث فى مسلم (كتاب الزكاة) ، ابن حنبل ١ /٢٠ .

٤ ـــ سورة آل عمران : ١٨ .

إحسانا — الى قوله — إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل)[1]، وقال تعالى : (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله . ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولاينفقون إلا وهم كارهون[2] ، وقال : (فلما اتاهم من فضله بخلوا به . وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه)[3] ، وقال : ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه)[4] ، وقال : فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون)[5] ، وقال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فتُكْوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم — الآية)[6] وكثير من الآى في القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء ، وذم من ترك ذلك كله ذم للبخل .

وكذلك ذمه للجبن كثير في قوله : (ومن يولهم يومئذ دُبُره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . ومأواه جهنم وبئس المصير)[7] ، وقوله عن المنافقين : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم . وما هم منكم . ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)[8] ، وقوله : (فإذا أنزلت صورة محكمة وذكر فيها القتال : رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت)[9] ، وقوله : (ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا إيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ؟ فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية .

---

١ — سورة النساء : ٢٦ — ٢٧ .
٢ — سورة التوبة : ٥٤ .
٣ — سورة التوبة : ٧٦ — ٧٧ .
٤ — سورة محمد : ٣٨ .
٥ — سورة الماعون : ٤ — ٧ .
٦ — سورة التوبة : ٣٤ — ٣٥
٧ — سورة الأنفال : ١٦ .
٨ — سورة التوبة : ٥٦ — ٥٧ .
٩ — سورة محمد : ٢٠ .

وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا الى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا)[1] .

وما فى القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه ، وذم الناكلين عنه والتاركين له : كله ذم للجبن .

(مدح الشجاعة والكرم)

ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم — فى دينهم ودنياهم — إلا بالشجاعة والكرم : بين الله سبحانه : أنه من تولى عنه — بترك الجهاد بنفسه — أبدل الله به من يقوم بذلك ، ومن تولى عنه — بإنفاق ماله — أبدل الله ، به من يقوم بذلك ،فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ، اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما . ويستبدل قوماً غيركم . ولا تضروه شيئاً . والله على كل شيء قدير)[2] ، وقال تعالى : (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغنى ، وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم . ثم لا يكونوا أمثالكم)[3] .

وبالشجاعة والكرم فى سبيل الله فضل الله السابقين . فقال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى)[4] ، وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال فى سبيله ، ومدحه فى غير آية من كتابه . وذلك هو الشجاعة والسماحة فى طاعته سبحانه . فقال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ؟ والله مع الصابرين)[5] ، وقال تعالى :

١ — سورة النساء : ٧٧ .
٢ — سورة التوبة : ٣٨ — ٣٩ .
٣ — سورة محمد : ٣٨ .
٤ — سورة الحديد : ١٠ .
٥ — سورة البقرة : ٢٤٩ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله : ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واصبروا ان الله مع الصابرين ﴾[1] .

والشجاعة ليست قوة البدن . فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف القلب . وإنما هى قوة القلب وثباته . فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال ، وعلى قوة القلب وخبرته به . والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة ، دون التهور الذى لا يفكر صاحبه ، ولا يميز بين المحمود والمذموم .

ولهذا كان القَوى الشديد : هو الذى يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح . دون مالا يصلح فأما المغلوب حين غضبه : فليس هو بشجاع ولا شديد وقد تقدم : أن جماع ذلك هو الصبر . فإنه لا بد منه .

والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة . كما قال الحسن رحمه الله : « ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة » . وذلك لأن أصل ذلك : هو الصبر على المؤلم . وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم .

والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه : أثار الغضب . وإن كان مما لا يمكن دفعه : أثار الحزن . ولهذا يحمر الوجه عند الغضب ، لثوران الدم عند استشعار القدرة . ويصفر عند الحزن ، لغور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « ما تعدون الرَّقوب فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذى لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرقوب ، ولكن الرقوب : الذى لم يقدم من ولده شيئاً . ثم قال : ما تعدون الصُّرَعة فيكم ؟ قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصرعة : هو الذى يملك نفسه عند الغضب »[2] .

---

١ — سورة الأنفال : ٤٥ — ٤٦ .

٢ — ورد الحديث فى مسلم (كتاب البر) ، وأبو داود ، النسائى وفى ابن حنبل ١ /٢٨٢ .

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى فى المصيبة : (وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ــ الآية)[1]

وقال تعالى فى الغضب : (وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) [2] .

وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب : نظير الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر النعمة ، كما فى قوله تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى . إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)[3]. وقال: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)[4] .

وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين رضى الله عنهم . حيث قال :

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم قوماً ولسوا مجازيعا إذا نيلوا

وكذلك قال حسان بن ثابت فى صفة الأنصار رضى الله عنهم :

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولاهلع[5]

وقال بعض العرب ، فى صفة النبى ﷺ : « يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر » .

---

١ ــ سورة البقرة : ١٥٥ ــ ١٥٦ .
٢ ــ سورة فصلت : ٣٥ .
٣ ــ سورة هود : ٩ ــ ١١ .
٤ ــ سورة الحديد : ٢٣ .
٥ ــ أنظر ديوان حسان بن ثابت فى قصيدته العينية التى مدح بها الأنصار ط الهيئة المصرية العامة ٢٣٩ . تحقيق حنفى حسنين .

النهى عن البطر والضجر

ولما كان الشيطان يدعو الناس — عند هذين النوعين — إلى تعدى الحدود بقلوبهم ، وأصواتهم ، وأيديهم : نهى النبى ﷺ عن ذلك : فقال لما قيل له : وقد بكى لما رأى إبراهيم فى النزع : « أتبكى ، وأنت تنهى عن البكاء ؟ فقال : إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نعمة : لهو ولعب ، ومزامير شيطان : وصوت عند مصيبة : لطم خدود ، وشق جيوب ، ودعاء بدعوى الجاهلية »[1] فجمع بين الصوتين .

وأما نهيه عن ذلك في المصائب : فمثل قوله ﷺ : ليس منا لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »[2] وقال : « أنا برىء من الحالقة ، والصالقة ، والشاقة »[3] ، وقال : « ما كان من العين والقلب : فمن الله . وما كان من اليد واللسان :فمن الشيطان » ، وقال : « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ، ولا حزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم — وأشار إلى لسانه »[4] ، وقال : « من يُنَحْ عليه ، فإنه يعذب بما نيح عليه »[5] واشترط على النساءفى البيعة « أن لا

---

١ — ورد الحديث فى الترمذى (كتاب الجنائز) . وفيه (... ولكن نهيت عن صوتين احمقين فاجرين ، صورت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

٢ — ورد الحديث فى البخارى ٧ /٨٨ بشرح الكرمانى (باب ليس منا من لطم الخدود ...) وبلفظ مختلف فى ٧ /٩١ ، ابن ماجة (كتاب الجنائز . باب ماجاء فى النهى عن قرب الخدود ص ٥٠٥ حديث رقم ١٥٨٥ ، النسائى ٤ /١٩ ،٢١ (باب دعوى الجاهلية ، مسلم ٧٠/١ (كتاب لايمان وباب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية ، ابن حنبل ٤٣٢/١ ، ٤٥٦ .

٣ — ورد الحديث فى البخارى (كتاب الجنائز ما ينهى من الحلق عند المصيبة) ٧ /٩٣ ، مسلم ٧٠/١ (كتاب الايمان) ، النسائى ٤ /٢٠ (باب السلق) .

٤ — ور الحديث فى البخارى ٧ /٩٨ بشرح الكرمانى . (كتاب الجنائز ، مسلم بشرح النووى ٦ /٢٢٥ — ٢٢٦ .

٥ — ورد الحديث فى البخارى بشرح الكرمانى ٧ /٨٧ (كتاب الجنائز باب ما تاسيو فى النياحة على الميت) ، مسلم بشرح النووى ٦ /٢٣٤ — ٢٣٥ (باب تحريم النياحة) ، الترمذى حديث رقم ١٠٠٠ طبعة فؤاد عبد الباق . ابن حنبل ٢٤٥/٢ .

ينحن » وقال : « إن النائحة — إذا لم تتب قبل موتها — فإنها تُلْبَس يوم القيامة درعاً من جَرَب ، وسربالا من قطران »[1] وقال فى القِتْلة ، والمصائب ، والفرح : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة . و ليُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[2] ، وقال : « إن أعف الناس قتلة : أهل الإيمان »[3] ، وقال : « لا تمُثلّوا ، ولا تَغدِروا ، ولا تقتلوا وليداً »[4] .

إلى غير ذلك مما أمر ﷺ به فى الجهاد : من العدل ، وترك العدوان ، اتباعاً لقوله تعالى : (ولا يَجْرِمكُّم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى)[5] ، ولقوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين)[6] .

ونهى عن لباس الحرير ، والتختم بالذهب ،والشرب فى آنية الذهب والفضة ، وإطالة الثياب . إلى غير ذلك من أنواع السرف والخيلاء فى النعم .

وذم الذين يستلون الخز ، والحر ، والحرير ، والخمر والمعازف ، وجعل فيهم الخسف والمسخ ، إن هم ارتكبوا ذلك .

---

١ — ورد الحديث فى مسلم بشرح النووى (كتاب الجنائز . باب النهى عن النياحة) .

٢ — ورد الحديث فى أبو داود ٢٤٤/٣ (كتاب الأضاحى . باب النهى ان تصبر البهائم) ، الترمذى ٢٢/٤ حديث رقم ١٤٠٩ (باب فى النهى عن المثلة) ، النسائى ٧ /٢٢٧٠ (باب الأمر باحداد الشفرة) ، ابن ماجة ١٠٥٨/٢ حديث رقم ٣١٧٠ ، الدارمى ٨٢/٢ (باب فى حسن الذبيحة) ، ابن حنبل ٤ /١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

٣ — ورد الحديث فى : أبو داود ١٢٠/٣ (كتاب الجهاد . باب النهى عن المسئله) ابن ماجة ٨٩٤/٢ (كتاب الديات ، باب اعف الناس قتلة اهل الايمان ، ابن حنبل ٣٩٣/١ .

٤ — ورد الحديث فى : الترمذى ١٦٢/٤ حديث رقم ١٦١٧ (كتاب السير ، باب ما جاء فى وصيته ﷺ فى القتال) ، ابن ماجة ٩٥٣/٢ (كتاب الجهاد . باب وصية الامام فى السرايا) حديث رقم ٢٨٥٧ ، ٨٥٨ ، الدارمى ٢ /٢١٥ (كتاب السير . باب وصية الامام فى السرايا) ، الموطأ ص ٢٩٧ (كتاب الجهاد . باب النهى عن قتل النساء) ، ابن حنبل ١/ ١٠٠٠، ٤/ ٢٤٠ ، ٥ /٣٥٨ .

٥ — سورة المائدة : ٨ .

٦ — سورة البقرة : ١٩٠ .

وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً ﴾[1]، وقال عن قارون : ﴿ اذ قال له قومه : لا تفرح . إن الله لا يحب الفرحين ﴾[2].

وهذه الأمور الثلاثة — مع الصبر عن الاعتداء فى الشهوة — هى جوامع هذا الباب . وذلك : أن الإنسان بين ما يحبه ويشتهيه ، وبين ما يبغضه ويكرهه . فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته ويدفع الثانى ببغضه ونفرته واذا حصل الأول أو اندفع الثانى أوجب له فرحاً وسروراً .وإن حصل الثانى ، أو أندفع الأول : حصل له حزن . فهو محتاج عند المحبة والشهوة ان يصبر عن عدوانهما ، وعند الغضب والنفرة : أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الفرح : أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة : أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبى ﷺ ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذى يوجب الاعتداء فى الفرح ، حتى يصير الإنسان فرحاً فخوراً . والصوت الذى يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الإنسان هلوعاً جزوعاً .

وأما الصوت الذى يثير الغضب لله : فكالأصوات التى تقال فى الجهاد من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك أصوات الشهرة فى الفرح . فرخص منها فيما وردت به السنة :من الضرب بالدف فى العرس والأفراح للنساء والصبيان . وعامة الأشعار التى تنشد بالأصوات لتحريك النفوس : هى من هذه الأقسام الأربعة . وهى التشبيب . وأشعار الغضب . والحمية . وهى الحماسة ، والهجاء واشعار المصائب ، كالمراثى . وأشعار النعم ، والفرح ، وهى المدائح

---

١ — سورة النساء : ٣٦ .

٢ — القصص ٧٦ .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع . كما قال تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون)(١) ولهذا أخبر : أنهم يتبعهم الغاوون . والغاوى : هو الذى يتبع هواه بغير علم . وهذا هوالغى . وهو خلاف الراشد . كما أن الضال : هو الذى لا يعلم مصلحته : هو خلاف المهتدى . قال سبحانه : (والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى)(٢) .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » (٣) .

فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة ، وجنس السماحة . إذا كان عدم هذين مذموما على الإطلاق . واما وجودهما : ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق .

لكن العاقبة في ذلك للمتقين فلهم عاجله لا عاقبه والعاقبة ـــ وإن كانت فى الآخرة ـــ فتكون فى الدنيا أيضا . كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ، ونجاته بالسفينة (قيل : يانوح أهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك . وامم سنمتعهم . ثم يمسهم منا عذاب أليم ـــ الى قوله ـــ فاصبر إن العاقبة للمتقين)(٤) وقال تعالى (فمن إعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين) (٥) .

---

١ ـــ سورة الشعراء : ٢٢٥ ـــ ٢٢٦ .
٢ ـــ سورة النجم : ١ ، ٢ .

٣ ـــ ورد الحديث فى : أبو داود ١٣/٥ (كتاب السنة . باب فى لزوم السنة) ، النسائى ٥ /١٤ حديث رقم ٢٦٧٦ (كتاب العلم ـــ باب ما جاء فى الأخذ بالسنة) ، ابن ماجة ١٥/١ (المقدمة) ، الدرامى ١ /٤٤ (المقدمة . باب فى اتباع السنة) ، ابن حنبل ٤ /١٢٦ ـــ ١٢٧ .
٤ ـــ سورة هود : ٤٨ ـــ ٤٩ .
٥ ـــ سورة البقرة : ١٩٤ .

(المحمود من الحمية والشجاعة ما كان لله)

والفرقان :أن يحمد من ذلك ماحمده الله ورسوله . فإن الله تعالى هو الذى حمده زين ، وذمه شين ، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم . ولهذا ــ لما قال القائل من بنى تميم للنبى ﷺ : «إن حمدى زين وذمى شين » قال له ــ :ذاك الله » [١] .

والله سبحانه حمد الشجاعة والسماحة فى سبيله . كما فى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : «قيل لرسول الله ﷺ : الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا . فهو فى سبيل الله » [٢] ، وقد قال سبحانه : : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله)[٣] .

وذلك : أن هذا هو المقصود الذى خلق الله الخلق كله له كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [٤] .

فكل ما كان لأجل الغاية التى خلق لها الخلق : كان محمودا عندالله . وهو الذى يبقى لصاحبه وينفعه الله به . وهذه هى الأعمال الصالحات . ولهذا كان الناس أربعة أصناف :

من يعمل للهبشجاعة وسماحة . فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة ومن يعمل لغير الله بشجاعة وسماحة . فهذا ينتفع بذلك فى الدنيا وليس له فى الآخرة من خلاق .

---

١ ــ ورد الحديث فى الترمذى (كتاب التفسير) ، ابن حنبل ٤٨٨/٣ وقال الترمذى : حسن غريب .

٢ ــ ورد الحديث فى : البخارى (كتاب العلم) ، مسلم٢ / ٤٨ (كتاب الجهاد) ، ابو داود ٣ / ٣١حديث رقم ٢٥١٧ (كتاب الجهاد) . النسائى٦ / ٢٣ (كتاب الجهاد) ،ابن ماجه ٢ / ٩٣١ حديث رقم ٢٧٨٣ (كتاب الجهاد) ،ابن حنبل ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٢

٣ ــ سورة الانفال :٣٩

٤ ــ سورة الذاريات ٥٦

(اقسام الناس فى الأمر والنهى)

فمن ترك القتال الذى أمر الله به لئلا تكون فتنة : فهو فى الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرض فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد .

فتدبر هذا .. فإن هذا مقام خطر . فان الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمرون وينهون ويقاتلون ، طلبا لإزالة الفتنة ـــ زعموا ـــ ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة . كالمقاتلين فى الفتن الواقعة بين الأمة ، مثل الخوارج . واقوام .

واقوام ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كلهلله . وتكون كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتنوا ، وهم قد سقطو فى الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة فى سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة . فإنها سبب نزول الآ ية . هذه حال كثير من المتدينة ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى وجهاد ، يكون به الدين كلهلله . وتكون به كلمة الله هى العليا لئلا يفتتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا انهم فروا منها .

وانما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهى ، وترك المحظور . والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا ، أو تركهما جميعا ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال ، أو شهوات الغى . فإذا فعل ما وجب عليه : من أمر ، ونهى ، وجهاد ، وإمارة ،ونحو ذلك . فلابد أن يفعل معها شيئا من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين . فإن كان المأمور أعظم أجرا من ترك ذلك المحظور : لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقترن به ما هو دونه فى المفسدة . وإن كان ترك المحظور أعظم أجرا : لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

وقد ذكروا فى التفسير : أنها نزلت فى الجد بن قيس لما أمره النبى ﷺ بالتجهيز لغزو الروم . وأظن رسول الله ﷺ قال له : «هل لك فى نساء بنى الأصفر ؟فقال : يارسول الله إنى رجل لا أصبر على النساء وإنى أخاف الفتنة بنساء بنى الأصفر . فائذن لى . ولا تفتنى » [1] .

وهذا الجد : هو الذى تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة . واستتر بجمل أحمر . وجاء فيه الحديث : « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الاحمر »[2] فأنزل الله تعالى فيه : «ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى . ألا فى الفتنة سقطوا) .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن . فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ، ومجاهدة نفسه عنه . فيتعذب بذلك ،أو يواقعه فيأثم . فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها . فإن لم يتمكن منها ــ إما لتحريم الشارع ، وإما للعجز عنها ــ يعذب قلبه . وإن قدر علها وفعل المحظور : هلك . وفى الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء .

فهذا وجه قوله « ولا تفتنى » قال الله تعالى : (ألافى الفتنة سقطوا)يقول : إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعف إيمانه ، ومرض قلبه الذى زين له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد سقط فيها .

فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه ، بوقوعه فى فتنة عظيمة قد إصابته ؟ والله تعالى يقول : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) [3]

---

١ ــ النظر فى سبب ن،زل االآية : تفسير الطبرى (تفسير سورة التوبه) ، ابن كثير ، صفوت التفاسير للصابونى .

٢ ــ ورد الحديث فى :مسلم ٢ / ٢٧٥ (كتاب المنافقين) ،الترمذى ٥ / ٦٩٦ (كتاب المناقب حديث رقم ٣٨٦٣ . باب فى فضل من بايع تحت الشجرة . .

٣ — سورة البقرة : ١٩٣ .

(اقسام الناس فى الأمر والنهى)

فمن ترك القتال الذى أمر الله به لئلا تكون فتنة : فهو فى الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرض فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد .

فتدبر هذا .. فإن هذا مقام خطر . فان الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمرون وينهون ويقاتلون ، طلبا لإزالة الفتنة — زعموا — ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة . كالمقاتلين فى الفتن الواقعة بين الأمة ، مثل الخوارج . واقوام .

واقوام ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كلهلله . وتكون كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتنوا ، وهم قد سقطو فى الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة فى سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة . فإنها سبب نزول الآ ية . هذه حال كثير من المتدينة ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى وجهاد ، يكون به الدين كلهلله . وتكون به كلمة الله هى العليا لئلا يفتتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا انهم فروا منها .

وانما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهى ، وترك المحظور . والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا ، أو تركهما جميعا ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال ، أو شهوات الغى . فإذا فعل ما وجب عليه : من أمر ، ونهى ، وجهاد ، وإمارة ،ونحو ذلك . فلابد أن يفعل معها شيئا من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين . فإن كان المأمور أعظم أجرا من ترك ذلك المحظور : لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقترن به ما هو دونه فى المفسدة . وإن كان ترك المحظور أعظم أجرا : لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

(الأمر والنهى من لوازم بنى آدم)

وكل بشر على وجه الأرض : فلابد له من أمر ونهى . ولابد أن يؤمر وينهى . حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها : إما بمعروف ، وإما بمنكر . كما قال تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء)[1] .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته .ولا بد لكل حى من أرادة وطلب فى نفسه . ويقتضى بها فعل نفسه ،ويقتضى بها فعل غيره إذا أمكن ذلك . فإن الانسان حى يتحرك بإرادته . وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعداً ، فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر . ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : اثنان . كما قيل « الاثنان فما فوقهما جماعة » ، لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة حصل باثنين . احدهما : إمام والآخر مأموم . كما قال النبى ﷺ لمالك بن الحويرث وصاحبه رضى الله عنهما : « إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما . وليؤمكما أكبركما » [2] وكانا متقاربين فى القراءة .

وأما فى الأمور العادية ، فى السنن : ان رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمروا عليهم أحدهم » [3] .

---

١ — سورة يوسف : ٤٣ .

٢ — ورد الحديث فى : البخارى ٢ /١٧٠ ، النسائى ٢١/٢ (كتاب الاذان . باب اقامة كل واحد لنفسه) ، ابن ماجة ٣١٣/١ . حديث رقم ٩٨٩ ، أبو داود ٣٤٠٥/٣ (كتاب الأطعمة . باب اذا حضرت الصلاة) حديث رقم ٣٧٥٧ . الدارمى ٢٩٣/١ . ابن حنبل ٤ /٤٩ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

٣ — ورد الحديث فى ابن حنبل ١٧٦/٢ — ١٧٧ ، وبلفظ مختلف . وجاء فى ابى داود بلفظ اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم .

وإذا كان الأمر والنهى من لوازم وجود بنى آدم . فمن لم يأمر بالمعروف ، الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر ، الذى نهى الله عنه ورسوله .ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله . وإلا فلابد أن يأمر وينهى ، ويؤمر وينهى : أما بما يضاد ذلك . وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله الله بالباطل الذى لم ينزله الله . واذا اتخذ ذلك دينا : كان دينا مبتعدا ضالا باطلا . وهذا كما أن كل بشر فإنه حى متحرك بإرادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله عملا صالحا لوجه الله . وإلا كان عمله عملا فاسدا ، أو لغير وجه الله . وهو الباطل كما قال تعالى : (إن سعيكم لشتى) [1].

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، أضل اعمالهم) [2] ،وقال تعالى :(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب) [3] ، وقال . (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) [4] .

وقد أمر الله تعالى فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من المؤمنين . كما قال تعالى : (يأأيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعو الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا) [5] .

و « أولو الأمر » أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم . وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدره ، وأهل العلم والكلام .

---

١ — سورة الليل : ٤ .
٢ — سورة محمد : ١ .
٣ — سورة النور : ٣٩ .
٤ سورة الفرقان : ٢٣ .
٥ — سورة النساء : ٥٩ .

فلهذا كان « أولو الأمر » صنفين : العلماء ، والأمراء فإذا صلحوا : صلح الناس . واذا فسدوا : فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للأحمسية لما سألته : « ما بقاؤنا عل هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم » .

ويدخل فيهم : الملوك والمشايخ ، واهل الديوان . وكل من كان متبوعا : فهو من أولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد ممن عليه طاعته : أن يطيعه فى طاعة الله ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه — حين تولى أمر المسلمين وخطبهم — فقال فى خطبته : « أيها الناس ، القوى فيكم : الضعيف عندى . حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم : القوى عندى ، حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما اطعت الله ورسوله . فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »[1] .



١ — اورد ابن كثير خطبة ابى بكر فى البداية والنهاية ٥ /٢٤٨ .

فصـــل

فى إخلاص العمل لله

واذا كانت جميع الحسنات ، لابد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله ، وأن تكون موافقة للشريعة . فهذا فى الأقوال والأفعال . فى الكلم الطيب ، والعمل الصالح . فى الأمور العلمية ، والأمور العملية العبادية . ولهذا ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ انه قال : « إن أول ثلاثة تسجر بهم جهنم : رجل تعلم العلم وعلمه . وقرأ القرآن واقرأه ، ليقول الناس : هو عالم وقارىء ورجل قاتل وجاهد ، ليقول الناس : هو شجاع وجرىء . ورجل تصدق وأعطى ، ليقول الناس : هو جواد وسخى »[1] فإن هؤلاء الثلاثة ، الذين يريدون الرياء والسمعة : هم بإزاء الثلاثة الذين بعد النبيين : من الصديقين، والشهداء والصالحين .

فإن من تعلم العلم ـــ الذى بعث الله به رسله ـــ وعلمه لوجه الله : كان صديقا .

ومن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وقتل : كان شهيدا .

ومن تصدق يبتغى بذلك وجه الله : كان صالحا .

ولهذا يسأل المفرط فى ماله الرجعة وقت الموت . كما قال ابن عباس رضى الله عنهما :« من أعطى مالا فلم يحج منه ، ولم يُزَكِّ : سأل الرجعة وقت الموت . وقرأ قوله تعالى : (وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت . فيقول : رب ، لولا اخرتنى إلى أجل قريب ، فأصَدَّقَ وأكن من الصالحين)[2] .

١ ـــ ورد الحديث فى سنن النسائى ٢٣/٦ (كتاب الجهاد . باب من قاتل ليقال فلان جرىء) . بلفظ مختلف جاء فيه (:.. أول الناس يقضى له يوم القيامة ثلاثة ، رجل استشهد فاتى به فعرفه نعمه فصرفها . قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت . قال كذبت . ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء .. الخ الحديث ، وفى ابن حنبل ٣٢٢/٢ ، الترمذى ، النسائى بالفاظ متقاربة .

٢ ـــ سورة المنافقون : ١٠ .

فهذه الأمور العلمية الكلامية : يحتاج أن يكون ما يخبر به — عن الله ، واليوم الآخر . وما كان ويكون — حقا صوابا ، وما يأمر به ، وما ينهى عنه ، كما جاءت به الرسل عن الله .

فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة ، المتبع لكتاب الله وسنة رسوله . كما أن العبادات التى نتعبد بها : إذا كانت مما شرعه الله ، وأمر الله به ورسوله : كانت حقا صواباً ، موافقا لما بعث الله به رسله . وما لم يكن كذلك من القسمين : كان من الباطل والبدع المضلة والجهل ، وإن كان يسميه من يسميه : علوما ومعقولات ، وعبادات ، ومجاهدات ، وأذواقا ، ومقامات .

ويحتاج أيضا : إن يؤمر بذلك لأمر الله ، وينهى عنه لنهى الله . ويخبر مما أخبر الله به . لأنه حق وإيمان وهدى ، كما أخبرت به الرسل . كما تحتاج العبادة إلى أن يقصد بها وجه الله .

فإذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية ، أو لإظهار العلم والفضيلة ، أو لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء .

ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من أهل العلم والمقال ، واهل العبادة والحال . فكثيرا ما يقول هؤلاء من الأقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة . أو ما يتضمن خلاف السنة ووفاقها . وكثيرا ما يتبعد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها . بل قد نهى عنها . أو ما يتضمن مشروعا ومحظورا . وكثيرا ما يقاتل هؤلاء قتالا مخالفاً للقتال المأمور به . أو متضمنا لمأمور به ومحظور .

ثم كل من الأقسام الثلاثة — المأمور والمحظور ، والمشتمل على الأمرين — قد يكون لصاحبه نية حسنه . وقد يكون متبعاً لهواه . وقد يجتمع له هذا وهذا .

فهذه تسعة أقسام فى هذه الأمور . وفى الأموال المنفقة عليها من الأموال السلطانية : الفيئ وغيره . والأموال الموقوفة ، والأموال الموصى بها ، والمنذورة . وأنواع العطايا ، والصدقات ، والصلات .

وهذا كله من لَبْس الحق بالباطل . وخلط عمل صالح وآخر سيئ .

والسيئ : من ذلك قد يكون صاحبه مخطئا ، أو ناسيا : مغفور له ، كالمجتهد المخطئ الذى له أجر ، وخطؤه مغفور له . وقد يكون صغيراً مُكَفَّراً باجتناب الكبائر . وقد يكون مغفوراً بتوبة ، أو بحسنات تمحو السيئات . أو مكفراً بمصائب الدنيا . ونحو ذلك .

ألا ان دين الله الذى انزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ما تقدم : من ارادة الله وحده بالعمل الصالح . وهذا هو الاسلام العام الذى لا يقبل الله من احد غيره . قال تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين) [1] ،وقال تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط . لاإله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام)[2]

معنى الاسلام

و « الاسلام » يجمع معنين . أحدهما : الاستسلام والانقياد ، فلا يكون متكبراً .

والثانى : الاخلاص من قوله تعالى : (ورجلا سلما لرجل) [3] فلا يكون مشتركا ، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين . كما قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيباه فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[4] ، وقال تعالى :(قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا . وما كان من المشركين . قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت . وأنا أول المسلمين)[5] .

---

١ — سورة آل عمران : ٨٥ .
٢ — سورة آل عمران : ١٨ — ١٩ .

٣ — سورة ال،مر :٢٩ .
٤ — سورة البقره :١٣٠ – ١٣٢ .
٥ — سورة االأنعام :١٦١ – ١٦٢ .

و (الاسلام) يستعمل لازما معدى بحرف اللام ، مثلما ذكر فى هذه الآيات . ومثل قوله تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ، ثم لا تنصرون)[1] ومثل قوله تعالى : (قالت : رب إنى ظلمت نفسى . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[2] ، ومثل قوله تعالى : (أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها . وإليه يرجعون)[3] ، ومثل قوله تعالى : (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا ، بعد إذ هدانا الله ؟ كا لذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران .له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا . قل إن هدى الله هو الهدى . وأمرنا لنسلم لرب العالمين .وأن أقيموا الصلاة واتقوه)[4] .

ويستعمل متعديا مقرونا بالاحسان . كقوله تعالى : (وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، أو نصارى . تلك أمانيهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن . فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[5] ، وقوله تعال ى : (ومن أحسن دينامن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا)[6] فقد أنكر الله أن يكون دين أحسن من هذا الدين . وهو إسلام الوجه لله مع الاحسان . وأخبر : أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن : فله أجره عند ربه . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أثبتت هذه الكلمة الجامعة ، والقضية العامة ، ردا لمزاعم من يزعم : أنه لا يدخل الجنة إلا متهودا أو متنصر . وهذان الوصفان ــ وهما إسلام الوجه لله ، والاحسان ــ هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصا لله صوابا ، موافقا للسنة والشريعة .

---

١ ــ سورة الزمر : ٥٤ .
٢ ــ سورة النمل : ٤٤ .
٣ ــ سورة آل عمران : ٨٢ .

٤ ــ سورة الأنعام : ٧١ .
٥ ــ سورة البقره : ١١١ – ١١٢ .
٦ ــ سورة النساء ::١٢٥ .

إخلاص الوجه لله يتضمن القصد والنية

وذلك . . أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله . كما قال بعضهم : أستغفر الله ذنبا ، لست محصية رب العباد إليه الوجه والعمل[1] .

وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ : إسلام الوجه ، وإقامة الوجه ، كقوله تعالى : (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد)[2] ، وقوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا.فطرة الله التى فطر الناس عليها)[3] .

وتوجيه الوجه : كقول الخليل عليه السلام : (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين) [4] .

وكذلك كان النبى ﷺ يقول فى دعاء الاستفتاح فى صلاته من الليل : (وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . . . الخ)[5] .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنهما . أن النبى ﷺ علمه أن يقول إذا أوى إلى فراشه : (اللهم أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك — الحديث)[6] .

فالوجه : يتناول المتوجهَ والمتوجهَّ إليه . ويتناول المتوجه نحوه . كما يقال : أى وجه يريد ؟ أى وجهة وناحية تقصد ؟ .

---

١ — لم اعثر له على قائل معين وهو من شواهد النحاة فى ابواب التمييز .

٢ — سورة الأعراف : ٢٩ .

٣ — سورة الروم : ٣٠ .

٤ — سورة الانعام : ٧٩ .

٥ — ورد الحديث فى ابن حنبل ٤ / ٢٩٩ — ٣٠٠ ، مسلم ٨ / ٧٧ — ٧٨ (كتاب الذكر الدعاء والتوبه) ، ابن ماجه ٢ / ١٥حديث رقم ٣٨٨٦ . (كتاب الدعاء .

٦ — ورد الحديث فى البخارى ٩ / ٩٢ (كتاب التوحيد) وفى مسلم وبلفظ مختلف ٨/ ٧٧ —٧٨ (كتاب الدعاء) .

وذلك أنهما متلازمان . فحيث توجه الانسان : توجه وجهة ، ووجهه مستلزم لتوجهه . وهذا فى باطنه وظاهره جميعا . فهى أربعة أمور . والباطن : هو الأصل . والظاهر : هو الكمال والشعار . فإذا توجه قلبه إلى شىء : تبعه وجهه الظاهر .

فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله : فهذا صلاح إرادته وقصده . فإذا كان مع ذلك محسنا ، فقد اجتمع له : أن يكون عمله صالحا ولا يشرك بعبادةربه أحدا . وهو قول عمر رضى الله عنه : « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا » .

لابد من موافقة السنة

والعمل الصالح : هو الاحسان ، وهو فعل الحسنات . وهو ما أمر الله به والذى أمر الله به : هو الذى شرعه الله . وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله .

فقد أخبر الله تعالى : من أخلص قصده لله ، وكان محسنا فى عمله : فإنه مستحق للثواب ،سالم من العقاب .

ولهذا كان أئمة السلف — رحمهم الله — يجمعون هذين الأصلين ، كقول الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا ؟)[1] قال : أخلصه وأصوبه . فقيل : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان صوابا ، ولم يكن خالصا : لم يقبل . وإذا كان خالصا ، ولم يكن صوابا : لم يقبل . حتى يكون خالصا صوابا . والخالص : أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة .

وقد روى ابن شاهين واللالكائى ، عن سعيد بن جبير . قال : « لا يقبل قول إلا بعمل . ولا يقبل قول وعمل إلا بنية . ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة » . وروي عن الحسن البصرى مثله . ولفظه « لا يصلح » مكان « لا يقبل » وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيا .

---

١ — سورة الملك : ٢ .

فأخبر أنه لا بد من قول وعمل .إذ الايمان قول وعمل . لا بد من هذين ، كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع . وبينا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان ، مع البغض لله ولشرائعه والاستكبار على الله وعلى شرائعه : لا يكون إيمانا باتفاق المؤمنين . حتى يقترن بالتصديق عمل صالح .

وأصل العمل :عمل القلب . وهو الحب ، والتعظيم النافى للبغض والاستكبار .

ثم قالوا : « لا يقبل قول وعمل : إلا بنية » وهذا ظاهر . فان القول والعمل إذا لم يكن خالصا لله تعالى : لم يقبله الله .

ثم قالوا : « ولا يقبل قول وعمل ونية : إلا بموافقة السنة » وهى الشريعة . وهى ما أمر الله به ورسوله ﷺ . لأن القول والعمل والنية الذى لا يكون مسنونا مشروعا قد أمر الله به : يكون بدعة « وكل بدعة ضلالة » ليس بما يحبه الله فلا يقبله الله . ولا يصلح . مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب .

ولفظ (السنة) في كلام السلف : يتناول السنة في العبادات ، وفي الاعتقادات . وإن كان كثيرا ممن صنف في السنة : يقصدون الكلام في الاعتقادات . وهذا كقول بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وأبى الدرداء ، رضي الله عنهم : (اقتصاد في سنة ، خير من اجتهاد في بدعة) وأمثال ذلك . والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد ومن تبعه بإحسان الى يوم الدين .



الفهـــرست



طبع بترخيص وزارة الاعلام رقم ٢٨٧٨/م/ج/٣٠//١١/١٤٠٣

